كوكتيل ٢٠٠٠
ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

الوريث

وقصص أخرى

27

د. نبيل فاروق

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

كمبيوتر

(قصة قصيرة)

« حان الوقت لشراء جهاز كمبيوتر .. »

اتسعت عينا الأستاذ (عاطف) ، مديـر حسـابات شـركة المنسوجات العصرية ، وهوى قلبـه بين قدميـه ، عندمـا نطق (شكرى) بك ، رئيس مجلس الإدارة هذه العبارة ، وهو يراجع كشف الحساب الأخير ، الذى قدّمـه لـه الاستاذ (عـاطف) ، والذى حرص على مراجعته بنفسه مرتين على الأقل ، وتزيينـه بالخطوط الحمراء والزرقاء قبل أن يقدّمه له ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد عثر (شكرى) بك على خطأ ما حتمًا ..

وإلا ، فلماذا تحدَّث عن شراء جهاز كمبيوتر ؟!

لماذا أشار إلى تلك الآلة الصمَّاء الجوفاء ، التى تهاجمه فى كوابيسه ، منذ عشرة أعوام على الأقل ؟!

منذ وقع بصره علىٍ أوَّل جهاز كمبيوتر صغير ..

يومها كاد قلبه يتوقَّف من شدة الفزع ، وهو يتابع ما يمكن أن يفعله هذا الجهاز ، الذى لا يزيد حجمه على حجم (تلفاز) بسيط ..

لقد قام الجهاز أمامه بجمع عامود من الأرقام السداسية ، يتكوَّن من عشرين سطرًا ، فى ثانية واحدة ..

وهذا يعنى أنه يستطيع فى ساعتين فحسب ، أن ينجز ما يقوم به هو من عمل ، فى عام كامل ..

فماذا ستصبح فائدته إذن ؟!

ومنذ ذلك الحين ، لم يغمض للأستاذ (عاطف) جفن ..

كل ليلة كان يحلم بجهاز الكمبيوتر ، الذى ينتشر فى كل مكان ، ويحتلّ المكاتب ، بدلاً من الموظفين ، الذين لا يعود هناك مفرّ من طردهم ، وفصلهم ، والاستغناء عنهم ، ما دام هذا الجهاز الجديد يقوم بالعمل كله ، على نحو أفضل ، وأكثر سرعة ..

ثم سيأتى اليوم ، الذى يتم فيه الاستغناء عنه شخصيًا ..

لن تحتاج شركة المنسوجات العصرية لخدماته ، التى يستطيع الكمبيوتر القيام بها ، دون أن يطالب بعلاوة ، أو يتقدَّم بشكوى لخلافه مع موظفيه ، أو يطارد صاحب العمل بكل المتطلبات المادية طوال الوقت ..

الكمبيوتر ..

آه من الكمبيوتر ..

عشر سنوات كاملة ، وهو يؤرق نوم الأستاذ (عاطف) ، ويفقده الشعور بالأمان والاستقرار ، علىٍ الرغم من أنه يعمل فى تلك الشركة منذ إنشائها .. لقد تسلَّم عمله فيها كمشرف على الحسابات ، فى نفس اليوم ، الذى افتتحها فيه صاحبها .. (شكرى) ، جار مسكنه ، وزميل دراسته الطموح ، الذى وضع يده على كتفه يوم الافتتاح ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، قائلاً :

ـ « (عاطف) .. إننى أعتمد عليك .. ليس فقط كمشرف على الحسابات .. ولكن أيضًا ، وهذا هو الأهم ، كصديق » .

من يومها لم يقصِّر الأستاذ (عاطف) فى عمله قط ..

لقد كان يعمل ويكافح ويناضل من أجل الشركة ، ومصلحة الشركة ، حتى لو اضطر لقضاء ليلته كلها فيها ، يراجع الحسابات ويزنها ، عندما كان الوحيد ، الذى يقوم بهذا العمل فيها ..

ومع مرور الوقت ، أصبح هناك قسم كامل للحسابات ، بعد أن نمت الشركة ، واتسعت أعمالها ومعاملاتها ..

وأصبح الأستاذ (عاطف) رئيسًا لقسم الحسابات ..

ثم مديرًا له ..

وتضاعف مرتبه ست مرات على الأقل ، خلال السنوات العشر الأخيرة ..

ولكن هذا لم ينجح فى انتزاع ذلك الخوف ، الذى بات واستقرّ فى أعماقه ، منذ شاهد جهاز الكمبيوتر ..

وها هى ذى اللحظة ، التى ظلّ يخشاها طيلة عمره ، تظهر للوجود ..

وها هو ذا (شكرى) ، الذى أصبح (شكرى) بك ، يتحدَّث عن ضرورة شراء جهاز كمبيوتر ، ليحلّ محله ..

الكابوس تحوّل إلى حقيقة ..

حقيقة انفطر لها قلبه ، وهو يسأل :

ـ « هل وجدت أى خطأ يا (شكرى) بك » ؟!

هزّ (شكرى) بك رأسه نفيًا ، وهو يذيِّل تقرير الحسابات بتوقيعه ، قائلاً :

ـ « مطلقًا .. أنت لا تخطئ فى عملك قط يا أستاذ (عاطف) » .

كانت لهجته ودود مهذَّبة كالمعتاد ، ولكن هذا لا يعنى شيئًا بالتحديد ..

إنه يعرف طبيعته هذه ..

دائمًا ودود مهذَّب ، سواء أكان يكافئ عاملاً مجتهدًا ، أو يعاقب مشرفًا كسولاً ..

أسلوبه لا يشفّ أبدًا عما يدور فى أعماقه ..

إنه سيبتاع أجهزة الكمبيوتر حتمًا ، ما دام قد تحدَّث عن هذا ..

وسيحل الكمبيوتر محل موظفى الحسابات ..

ثم محل مدير الحسابات نفسه ..

وانتفض جسده ، وسرت فيه قشعريرة باردة كالثلج ، عندما جال هذا الخاطر برأسه ..

وبصوت خافت متوترٍ ، غمغم :

ـ هذه الدقّة يتميزّ بها البشر وحدهم .

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتى (شكرى) بك ، وكأنما فهم ما يتوارى خلف عبارته ، وقال بلهجته المهذَّبة الودود :

ـ لا يمكنك أن توقف التقدُّم يا أستاذ (عاطف) .. هل تذكر مرحلة انتشار آلات الجيب الحاسبة ؟! لقد تصدّى لها البعض أيضًا ، وحاربوها ، وقالوا : إن استخدامها يفسد قدرة المخ على الحساب ، ولكن حربهم هذه باءت بالفشل ، وها هى ذى الآلات الحاسبة فى أيدى الصغار .. حتى وزارة التربية والتعليم سمحت باستخدامها .

قال الأستاذ (عاطف) ، مدافعًا عن وجهة نظرة :

ـ « لا يمكنك تخزين كل دفاتر حساباتنا فى آلة حاسبة » .

هزّ (شكرى) بك كتفيه ، قائلاً :

ـ « بالضبط .. ولهذا صنعوا أجهزة الكمبيوتر » .

وقع قلب الأستاذ (عاطف) مرة أخرى بين قدميه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ « البشر أفضل من الكمبيوتر » .

اتسعت ابتسامة (شكرى) بك ، وقال :

ـ « ليس فى كل الأحوال » .

هتف الأستاذ (عاطف) ، وقد ارتفعت نبرة صوته ، دون أن يدرى :

ـ « العقول البشرية هى التى اخترعت الكمبيوتر » .

وفى هذه المرة ، تحوّلت ابتسامة (شكرى) بك إلى ضحكة قصيرة ، احتقن لها وجه الأستاذ (عاطف) فى شدة ، قبل أن يقول الأوّل :

ـ « لا علاقة بين هذا وذاك يا أستاذ (عاطف) ، فالعقل البشرى اخترع السيارة ، ولكنها تسير أسرع منه بكثير ، واخترع الطائرة أيضًا ، ولا يمكنه الطيران .. وهناك الغوّاصة ، والدبّابة ، والصاروخ » .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى خبث :

ـ « إنها سمة العصر يا أستاذ (عاطف) ، وعندما يبدأ التقدّم ، فلا سبيل لإيقافه .. إما أن تلحق به ، أو تتخلّف عنه إلى الأبد .. هذه ضرورة حتمية » .

امتقع وجه الأستاذ (عاطف) ، وهو يتطلّع إليه فى يأس ..

إذن فقد كانت مخاوفه حقيقة ..

لقد أعلنها (شكرى) بك واضحة ، بلا مجاملة أو مواربة ..

إنها سمة العصر ..

إما أن تلحق بالتقدّم ، أو تتخلّف عنه إلى الأبد ...

إنها ضرورة حتمية ..

وإشارة مباشرة من (شكرى) بك ..

إنه لم يعد بحاجة إلى خدماته ..

لقد حانت لحظة الاستبدال ..

أن يستبدل به هو ، الذى عمل بكل جهد وإخلاص ، من أجل الشركة ، جهاز كمبيوتر جافًا ، عبارة عن مجموعة من الأسلاك ، والتوصيلات ، ورقائق السيليكون ، داخل إطار من الألياف الزجاجية ، يطلّ عليك عبر شاشة ملوّنة خادعة ..

هذا هو مدير الحسابات الجديد ..

المدير الذى سيحّل محلّه ، ويعمل بأضعاف أضعاف كفاءته وسرعته ..

دون أن يتقاضى راتبه ..

« لو أننى فى مكانك ، لاعترفت بحتمية الكمبيوتر .. هذه هى الروح الرياضية .. »

نطقها (شكرى) بك بنفس اللهجة المهذّبة الودود ، وابتسامته تملأ وجهه ، فغمغم الأستاذ (عاطف) فى يأس واستسلام :

ـ « بالطبع .. إننى اعترف » .

ثم استدار يغادر المكتب ، مضيفًا فى مرارة :

ـ هذه هى الروح الرياضية ..

لم يدر كيف قضى ما تبقى من ساعات العمل بعدها ..

لقد غامت الدنيا أمام عينيه ، ولم يستطع أن يقرأ أو يكتب حرفًا واحدًا ..

إنها النهاية ..

لقد انتصر عليه الكمبيوتر أخيرًا ..

إنه لم يعد مدير الحسابات ، الذى يقف سكان حيّه احترامًا ، فور رؤيته ..

لقد أصبح مجرّد رجل مهزوم ..

موضة قديمة ، لا تناسب العصر وتقدّمه ..

تمامًا مثل الحاج (حسن) الحلاّق ، الذى رفض استخدام مجففات الشعر الكهربية ، عندما بدأ انتشارها فى السبعينات ،

وأصرّ على حلاقة شعر زبائنه بالأسلوب التقليدى ، حتى استيقظ يومًا ، ولم يجد لديه سوى بعض الزبائن العجائز والشيوخ ، بعد أن انصرف عنه كل الشبان إلى حلاقين آخرين ، يستخدمون المجففات الكهربية ..

يومها أسرع الحاج (حسن) يبتاع مجففًا كهربيًا ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

زبائنه القدامى صاروا زبائن فى محال أخرى ..

والعجائز والشيوخ يرفضون استخدام المجفّف الكهربى ، الذى لم يعمل مرة واحدة ..

إنه ما زال يذكر مشهد الحاج (حسن) ، بعد أن شاب شعره ، وخلا محلّه من الزبائن أو كاد ، ولم يعد لديه ما يفعله ، سوى الجلوس أمام المحل ، ممسكًا بالمجفّف ، وكأنما يعلن لكل خلق الله ، ويقسم بالعيش والملح أنه يمتلك مجففًا ، مثله مثل كل أصحاب المحال الحديثة ..

وطوال يومه ، ظلّ الأستاذ (عاطف) يتخيّل نفسه فى الموقف ذاته ..

جالسًا أمام الشركة ، حاملاً آلة الجيب الحاسبة ، وقد نمت لحيته ، وغارت عيناه ، واحمرّتا ، وبدا أشبه ما يكون بالحاج (حسن) ..

وفى تلك الليلة بالذات ، لم يهاجمه ذلك الكابوس التقليدى ..

هذا لأنه لم يغمض له جفن قط ..

لقد تجاوز الأمر مرحلة المخاوف إلى بحر الحقائق المتلاطم ..

(شكرى) بك أجرى اتصاله بشركة الكمبيوتر بالفعل ، وأخبره مهندسوها أن أجهزة الكمبيوتر الجديدة ستبدأ عملها ، فى العاشرة من صباح الغد ..

لم يعد هناك أمل ..

ومرَّت الليلة كدهر كامل ، بالنسبة للأستاذ (عاطف) ..

وفى الصباح حلق لحيته فى يأس وتباطوء ، واتصل بالشركة ، ليخبرهم أنه سيتأخَّر حتى الحادية عشرة ..

كان يتمنى أن يخبره أحد أن العمل يحتاج إليه بشدة ، وأنه من الضرورى أن يحضر فى الثامنة والنصف كالمعتاد ..

ولكن أحدًا لم يفعل ..

وكان هذا إعلانًا جديدًا بأنهم قد استغنوا عن خدماته ..

وراودته فكرة الانقطاع عن العمل ، حتى يتصل به (شكرى) بك شخصيًا ..

ولكن الفكرة وُلِدَتْ وماتت فى عقله ، قبل حتى أن تراود نفسه ..

وعلى الرغم من عذابه وآلامه وحزنه ويأسه وجد نفسه يغادر منزله فى التاسعة والنصف ، وينطلق بسيارته إلى مقر الشركة ، وكأنما أصبح كالسمك ، لا يمكنه العيش خارج بحره الخاص ..

وعندما بلغ الشركة ، هوى قلبه مرة أخرى بين قدميه ..

كل شىء كان يحمل إليه نفس العبارة ، التى هتف بها أحد موظفيه فى سعادة :

ـ « أجهزة الكمبيوتر الجديدة وصلت » .

امتقع وجهه فى شدة ، وكاد يهوى فاقد الوعى ، وهو يحاول عبثًا الابتسام ، والموظف يضيف :

ـ « المهندسون يقومون بتركيبها الآن ، و(شكرى) بك يتابع الأمر بنفسه .. لقد طلب أن تلحق به هناك ، فور وصولك » .

كاد يبكى ، وهو يتجه نحو قسم الحسابات ..

الآن سيقف وجهًا لوجه مع منافسه الجديد ..

بل مع بديله ، الذى يوليه (شكرى) بك اهتمامه ورعايته شخصيًا ..

وارتجفت قدماه ، وهو يدفع باب القسم ..

ربما كانت آخر مرة يدلف فيها إليه ..

بل من المؤكَّد أنها كذلك ..

لن تعود له فائدة ، بعد أن تعمل أجهزة الكمبيوتر ..

لن يكون لوجوده أية أهمية ..

« أستاذ (عاطف) .. »

استقبله (شكرى) بك بالهتاف ، فى سعادة واضحة ، وهو يشير إلى أجهزة الكمبيوتر الثلاثة ، التى احتلَّت مكانًا متميِّزًا ، فى قسم الحسابات ، قائلاً :

ـ « لقد وصلت الأجهزة الجديدة .. العمل سيتحسَّن حتمًا ، وستزداد كفاءته مرات ومرات » .

شعر بغصة فى حلقه ، وهم بقول شىء ما ، إلا أنه عجز عن هذا ، فأطبق شفتيه فى مرارة ، ولكن (شكرى) بك وضع يده على كتفه فى مودّة ، ودفعه فى رفقٍ نحو المهندسين الثلاثة ، وهو يشير إليه ، ويقدّمه لهم ، قائلا :

ـ « الأستاذ (عاطف) .. مدير حسابات الشركة » .

ثم التفت إليه مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ « ومدير قسم الكمبيوتر الجديد » .

ووثب قلبه بين ضلوعه ..

من شدة الفرح هذه المرة ..

والتقت عيناه بعينى (شكرى) بك ، الذى ربّت على كتفه ، مضيفًا :

ـ « إننا نعتمد عليه هنا » .

ولم يدر الأستاذ (عاطف) ماذا أصابه ؟!

كل ما يذكره هو أنه قد اندفع يصافح مهندسى الكمبيوتر الثلاثة فى حرارة ، وهو يسألهم فى لهفة وحماس :

ـ متى سينتهى عملكم ؟! إننا نشتاق للعمل على الأجهزة الجديدة ..

والأكثر أهمية ، وإثارة للدهشة ، أنه قد بذل جهدًا مضنيًا ، بعد شهر واحد ، ليقنع زوجته بإطلاق اسم جديد مبتكر ، على مولودهما الأخير ..

اسم (كمبيوتر) .

★ ★ ★

اختبر معلوماتك

مرة أخرى ، وعلى صفحات كوكتيل ٢٠٠٠ ، نلتقى ..

وكما يحدث ، فى كل مرة ، سنطرح مجموعة من الأسئلة ..

وسنطرح معها سؤالنا التقليدى ..

هل أنت مثقّف ؟!

وكتقليد جديد ، بدأناه منذ كتابين أو ثلاثة ، ستكون الأسئلة كلها متخصّصة ..

وفى هذا الكتاب ، ستدور كلها حول أمر واحد ..

العلم ..

هيا .. اقتحم معنا الأسئلة هذه المرة ، واختر إجاباتها ، ثم ارجع إلى الأجوبة الصحيحة ، فى نهاية الكتاب ..

ثم ألق على نفسك السؤال المعتاد ..

هل ..... ؟!

★ ★ ★

١ ـ القنبلة الهيدروجينية تفوق بقوتها التدميرية القنبلة الذرية بخمس مرات على الأقل ، ويعود هذا إلى أن وسيلة إطلاق الطاقة منها تعتمد على :

□ الانشطار . □ الاندماج . □ التفاعل المتسلسل .

٢ ـ هو فرع من الرياضيات ، يختصّ بدراسة المبادئ الرياضية ، وتطبيقاتها فى المجالات الأخرى ، وخاصة الفيزياء ، والكيمياء ، والهندسة ، وهذا الفرع هو :

□ الرياضة البحتة . □ الرياضة الحديثة . □ هندسة الفيزيقيات .

٣ ـ فى الكهرباء ، مصطلح يطلق على المادة ، التى تكون من المعادن عادة ، والتى تسمح للتيار الكهربى بالسريان فيها بحرية ، وهذا المصطلح هو :

□ المعدن الحر . □ الفلز . □ الموصّل .

٤ ـ ظاهرة طبيعية ، تحدث فى الصحراء ، وفيها تبدو الرمال أو المرئيات البعيدة ، كما لو كانت على سطح ماء ، والسبب فيها أن حرارة الهواء الملاصق للرمال تتزايد ، فينخفض معامل انكساره ، نتيجة لتمدّده ، ويطلق على هذه الظاهرة اسم :

□ السراب . □ الانكسار . □ الشبّورة .

٥ ـ اسم يصف الحياة البحرية ، الطافية فوق سطح البحر ، والمندفعة مع التيارات البحرية ، وهى أحد المصادر الأساسية لتغذية الحيوانات الحية فى البحر ، وهى :

□ الطحالب . □ العشبيات . □ البلانكتون .

٦ ـ وحدة كهربية ، لقياس سعة الموصّل أو المكثف ، ويعرف بأنه الزيادة فى جهد الفولت الواحد ، نتيجة لإضافة كولوم واحد ، وهذه الوحدة هى :

□ الأوم . □ الفاراد . □ الفولت .

٧ ـ لحساب الجاذبية الأرضية ، يتم تطبيق معادلة تنصّ على أن قوة الجسم المتحرّك ، تساوى حاصل ضرب كتلته ، فى عجلته التزايدية ، وعجلة الجاذبية الأرضية تساوى :

□ ٧٩٠سم / ثانية / ثانية . □ ١٠١٣سم / ثانية / ثانية .

□ ٩٨١سم / ثانية / ثانية .

٨ ـ كيميائية بولندية المولد ، توصّلت مع زوجها (بيير) إلى كشف عنصرى (البولونيوم) و(الراديوم) ، عام ١٨٩٨، وبسبب كشفهما هذا ، نالا جائزة (نوبل) فى الفيزياء عام ١٩٠٣م ، ثم حصلت هى وحدها على جائزة (نوبل) فى الكيمياء ، عام ١٩١١م، وهذه الكيميائية هى :

□ مارى كورى . □ راشيل فيدروسكى . □ ماريا كالاس .

٩ ـ أملاح تذوب بسهولة فى الماء ، وتكوّن بلّورات محدودة الشكل ، وفى وقت ما ، كانت هذه الرواسب الطبيعية فى (شيلى) هى المورد الوحيد لهذا الملح ، وهى تستخدم فى صناعة مواد الصباغة والمفرقعات ، وهذه الأملاح هى :

□ كلوريدات المغنسيوم . □ النترات . □ اليود .

١٠ ـ تحتوى كل خلية نباتية أو حيوانية ، على عدد ثابت من الكروموسومات ، بالنسبة لكل نوع من الأنواع ، وعندما تتحد خلية ذكرية مع خلية أنثوية ، من نوع واحد ، فكل من الخليتين تعانى من انقسام ، ينقص بمقتضاه عدد الكروموسومات فيها إلى النصف ، ويعرف هذا الانقسام باسم :

□ انقسام نصفى . □ انقسام ميتوزى . □ انقسام ميوزى .

١١ ـ عنصر فلزى ، ثنائى التكافؤ ، وأحد الفلزات القلوية الأرضية ، يقع فى الصف الثانى من الجدول الدورى ، لونه أبيض فضى ، ويتفاعل مع الماء ، مكونًا الهيدروكسيد ، وهذا العنصر هو :

□ الكالسيوم . □ البوتاسيوم . □ الصوديوم .

١٢ ـ هى أكبر غدة فى جسم الإنسان ، وتلعب دورًا بارزًا فى عملية الأيض ، وتعتبر المصنع الرئيسى لتحويل الجلوكوز فى الجسم إلى جليكوجين مختزن ، وهذه الغدّة هى :

□ الطحال . □ الكبد . □ الغدة الدرقية .

١٣ ـ مواد كيميائية ، تنتجها أعضاء معيَّنة ، وتدخل فى مجرى الدم ، وتؤثِّر فى الأعضاء الأخرى ، وتختلف عن المواد التى تفرزها ، وتتحكَّم فى النمو ، وتحافظ على الصحة ، وتساعد الجهاز الهضمى ، وهذه المواد هى :

□ الأحماض . □ الهرمونات . □ القلويات .

١٤ ـ كائن حى بدائى ، صغير جدًا ، يتكوَّن من خلية واحدة ، متوسِّط سمكه ١/٢٥٠٠٠ من البوصة ، لا يحتوى على كلوروفيل على الإطلاق ، وعلى الرغم من هذا ، يعد من عالم النبات ، وهو :

□ البكتريا . □ الفيروس . □ الطحلب .

١٥ ـ الصوت هو إحساس يصاحب اهتزازات طبلة الأذن ، عند ترددات معينة ، وسرعة الصوت فى الهواء هى :

□ ١٥٠سم/ث . □ ١٢٠٠سم/ث . □ ٣٤٠سم/ث .

١٦ ـ حالة إبصارية ، يعانيها الشخص ، إذا كان طول كرة العين ، بحيث تتجمَّع الأشعة المتوازية الساقطة عليها ، فى نقطة خلف الشبكية ، ويطلق عليها اسم :

□ ميوبيا . □ هيبر متروبيا . □ استيجماتيزم .

١٧ ـ خام معدنى نفيس ، فى صورة بلّورية ، وله أعلى درجة صلادة ، بين كل الخامات والفلزّات الأخرى ، وهو أحد صور الكربون ، ويعرف باسم :

□ الماس . □ الذهب . □ الياقوت .

١٨ ـ فرع من الميكانيكا ، يبحث فى اتزان السوائل والغازات وحركتها ، تحت تأثير القوى المختلفة ، ويعرف هذا الفرع باسم :

□ هيدرولوجى . □ هيدروليكا . □ هيدروميكانيكا .

١٩ ـ فى الرياضيات ، فى المثلث القائم الزاوية ، يطلق على الضلع المقابل للزاوية القائمة اسم :

□ الوتر . □ نصف القطر . □ القطاع .

٢٠ ـ مرض معد ، من أمراض الطفولة ، يتميَّز بحمى وسعال ، وانتشار بقع حمراء فى الجسم ، ويسبِّبه فيروس معد ، وينتشر بالسعال والعطس ، وهذا المرض هو :

□ الجديرى . □ الحصبة . □ الإكزيما .

★ ★ ★

الآن ، وبعد أن راجعت الأسئلة كلهـا بنفسـك ، ووضعت أجوبتك الخاصة ، ابحث عن الأجوبة الصحيحة فى نهاية الكتاب ، و .....

ولا تخبر أحدًا ..

يكفى أن تحتفظ بهذا لنفسك ، وتتابع معنا الباب نفسه ، فى كتبنا القادمة ، لتواجه التحدِّى مرة أخرى ، وتجيب عن سـؤالنا الدائم ..

هل أنت مثقف ؟!

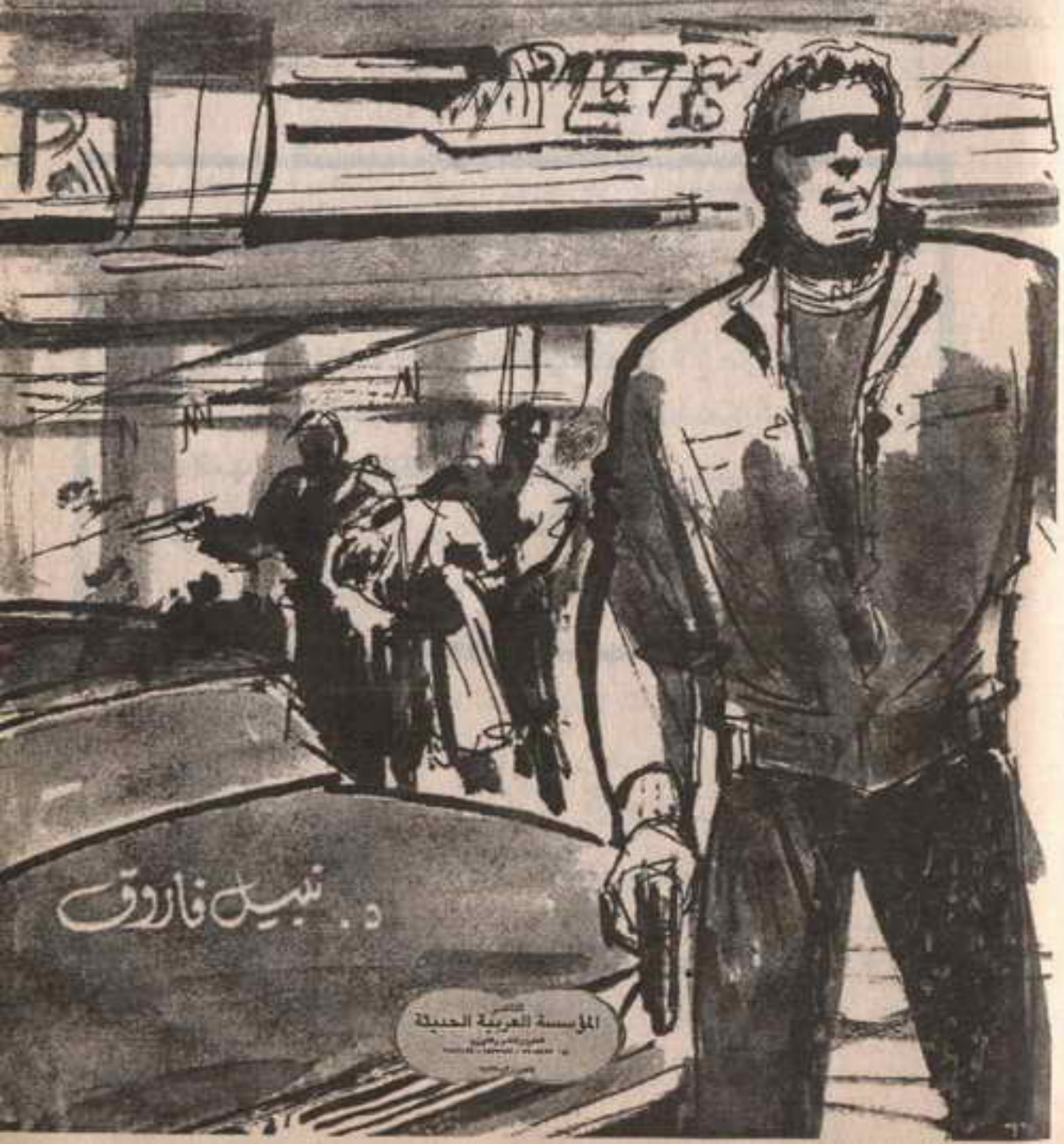

★ ★ ★

هذه القصة لم تحدث من قبل ..
أو ربما حدثت ..
أو أن بعضها حدث ، وبعضها لم يحدث ..
ضعها فى عقلك حسبما يتراءى لك ..
ولكن المهم أنها تحمل توقيع الوطن ..
توقيع (مصر) ..

د . نبيل فاروق

١ ـ اختطـــاف ..

« على ركاب طائرة (مصـر) للطـيران ، المتجهـة إلـى (القاهرة) ، سـرعة إنهـاء إجـراءات السفر ، فالطـائرة ستقلع بعد ثمان عشرة دقيقة فحسب .. »

ألقى رجل المخابرات المصرى (رفعت) نظرة سريعة على ساعة معصمـه ، عندمـا بلـغ النداء مسامعه ، عـبر مكـبرات الصوت ، المنتشرة فى كل مبانى مطار (جى . إف . كيه) ، فى مدينة (نيويورك) ، وحمل معطفه علـى ساعده ، وهـو يلتقط حقيبته الجلدية الصغيرة ، قائلاً لمساعده (صلاح) :

ـ الوقـت يمضـى فى سـرعة .. سنفترق الآن .. نفذ كـل ما أمرتك به ، بشأن هؤلاء الإسرائيليين ، فمن الواضح أنهم يتحركون على نحو عصبى متوتر ، بعد أن أوقعنا برجلهم الأوّل فى (مصر) ، ولست أستبعد إقدامهم علـى أى عمل عدوانـى انتقامى ، خلال الساعات القليلة القادمة ، قبل أن يلقى الرئيس (السادات) خطابه ، ويعلن سقوط جاسوسهم(*) .

ابتسم (صلاح) ، قائلاً :

ـ أنت تعـرف الإسـرائيليين يا سيِّـد (رفعت) .. لقد حطَّم

(*) تـدور الأحداث فى منتصف السبعينات ، إبان حكم الرئيس الراحل (محمد أنور السادات) .

جيشنا أسطورة جيشهم الذى لا يقهر ، فى حرب أكتوبر ، ونجحنا نحن فى خداعهم طوال الوقت ، حتى بدا (الموساد) فى صورة مخزية ، عندما اندلعت الحرب بغتة ، دون أن يدرك هذا ، أو ينتبه إليه ، وهذا لا يروق لهم بالتأكيد ، فما بالك بنجاحنا فى الإيقاع بواحد من أفضل جواسيسهم وضباط مخابراتهم ، بضربة بارعة مدهشة ، وقبل أن ينجح فى تنفيذ عملية الاغتيال ، التى تسلل إلى بلادنا للقيام بها .. إنهم مصابون بالجنون حتمًا ، وسيفعلون أى شىء فى الدنيا ، لحفظ ماء وجوههم .

أومأ (رفعت) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالضبط .. خبراؤنا يتوقعون قيامهم بعملية انتحارية قوية ، تلفت إليهم أنظار العالم أجمع ، ويختفى مع ضجيجها دوى سقوط جاسوسهم الأول .

سار (صلاح) إلى جواره ، وهو يسأله :

ـ وما الذى تتوقع منهم فعله يا سيِّد (رفعت) ؟!

هزَّ (رفعت) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ لا أحد يمكنه التنبؤ بهذا يا (صلاح) ، فالإسرائيليون بطبعهم لا يحترمون أو يراعون أية قيم أو قواعد أخلاقية أو إنسانية ، لذا فيمكنك أن تتوقع منهم القيام بأى عمل كان ، وبأقصى سرعة ممكنة .. إذ إنه من الضرورى أن يضربوا ضربتهم اليوم أو غدًا صباحًا ، على أقصى تقدير ، حتى يضيع خطاب الرئيس (السادات) مع قوة الضربة .

هزَّ (صلاح) رأسه ، وهو يبتسم ، قائلاً :

ـ لن يمكنهم أن يربحوا أبدًا .

ابتسم (رفعت) ، وغمغم ، وهو يتجه نحو بوَّابة ممر الإقلاع :

ـ أتعشَّم هذا .

كان يستعد لتقديم جواز سفره إلى ضابط البوَّابة ، عندما اندفع نحوه رجل ممشوق القوام ، وهو يقول فى توتر :

ـ مهلاً .. لحظة أيها السيِّد .

التفت إليه (رفعت) فى هدوء ، متسائلاً :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار إليه الرجل ، قائلاً :

ـ يبدو أنك قد استبدلت جواز سفرك بجواز سفرى ، دون أن تدرى ، و ...

انعقد حاجبا (رفعت) ، وهو يقاطعه فى توتر :

ـ جواز سفرك ؟!

أدرك على الفور أن عذر الرجل غير منطقى ؛ إذ إن جواز سفره لم يكن جوازًا عاديًا ، ويمكن الخلط بينه وبين أى جواز سفر آخر ، وإنما كان دبلوماسيًا أحمر اللون ، مميَّزًا للغاية ..

وكان هذا يعنى أن الرجل مخادع ..

وأن له هدفًا آخر ..

وبحركة سريعة ، تراجع (رفعت) ، وقفزت يده بحركة

غريزية نحو سترته ، قبل أن يتذكّر فى لمح البصر أنه لا يحمل مسدسه المعتاد فى حين هتف (صلاح) ، وهو يقفز نحوه ، محاولاً حمايته .

ـ ماذا يحدث بالضبط .

لم يكد ينهى عبارته ، حتى انقضّ عليه رجلان قويّان من الخلف ، فقيّد أحدهما ذراعيه بساعدين من الصلب ، فى حين هوى الثانى على رأسه بهراوة ثقيلة ..

وبحركة سريعة ماهرة ، مال (صلاح) برأسه جانبًا ، ودفع جسده كله إلى الخلف فى قوة ، فتفادى ضربة الهراوة ، التى هوت على كتف ذلك الذى يقيّد ذراعيه من الخلف ، فأطلق صرخة ألم ، وتراخت ذراعاه اللتان تقيّدان (صلاح) ..

وفى نفس اللحظة ، كان (رفعت) ينقضّ على ذلك الذى تقدّم نحوه ، ويكيل له لكمة كالقنبلة ، وضابط البوّابة يهتف :

ـ ما الذى يحدث بالضبط ؟!

حاول الضابط أن ينتزع مسدسه من غمده ، ولكنه فوجئ برجل رابع ينقضّ عليه ، من الجانب الأيسر ، ويطلق عليه النار مباشرة ..

ومع دوى الرصاصة ، فى قلب المطار ، ساد الهرج والمرج على نحو عنيف ، وشعر (رفعت) بضربة قوية ، على مؤخرة رأسه ، فانطلقت من حلقه آهة ألم ، ولكنه قاوم فى بسالة ، وسيطر بإرادة مدهشة على وعيه ، على الرغم من عنف الضربة ، ودار على عقبيه يواجه صاحبها ..

ومن طرف عينه ، لمح (صلاح) ملقى أرضًا ، والدماء تنزف من رأسه فى غزارة ، وثلاثة من رجال أمن المطار يعدون نحوه من بعيد ، فى حين يواجهه رجلان قويًا البنية ، انقضّا عليه فى آن واحد ، من اليمين واليسار ..

وبسرعة مدهشة ، اتخذ (رفعت) وقفة قتالية ، واستقبل الرجل الأيسر بلطمة عنيفة ، فى أنفه مباشرة ، ثم استدار يواجه الأيمن ، و ...

وهوت لكمة أكثر عنفًا ، على مؤخرة رأسه ..

وفى هذه المرة ، كانت أقوى مما يمكن أن يحتمل ..

- أو يقاوم ..

وعلى الرغم من ذلك ، فقد أطلق قبضته نحو خصمه ، وشعر بها تضرب الهواء ، فى نفس اللحظة التى هوت فيها على رأسه ضربة أخرى ، امتزجت بصيحة مبهمة ، اخترقت أذنيه ، قبل أن يتلاشى كل شىء من حوله دفعة واحدة ..

وبأقصى سرعة ..

★ ★ ★

« كانت عملية سريعة ومحدودة للغاية .. »

نطق مدير المخابرات المصرى بالعبارة ، فى ضيق واضح ، فى مواجهة الرئيس (السادات) ، الذى مطّ شفتيه فى امتعاض ، وراح يشعل غليونه فى بطء ، ومدير المخابرات يواصل :

- كل الغرض منها ، كان إحداث أكبر قدر ممكن ، من الهرج والمرج والاضطراب ، تمكّن عملاء (الموساد) خلاله من إفقاد رجلنا (رفعت) وعيه ، وحمله إلى سيارة كبيرة ، كانت فى انتظارهم خارج المطار ، وانطلقت بهم على الفور إلى مكان مجهول ، دون أن تعلن أية جهة مسئوليتها عن الحادث ..

نفث الرئيس دخان غليونه ثلاث مرات فى توتر ، قبل أن يسأل :

- وماذا عن رجال (الموساد) ، الذين قاموا بالعملية ؟!

أجابه مدير المخابرات فى حنق :

- لقد اختفوا وسط الهرج الحادث .. تلاشوا ، طبقًا لأقوال رجال أمن المطار ، وكأن لم يكن لهم وجود .

مطّ الرئيس شفتيه مرة أخرى ، وهو يسأله :

- وما رأيك أنت ؟!

أجاب مدير المخابرات فى سرعة :

- هناك تواطؤ واضح .

أومأ الرئيس برأسه موافقًا ، وقال :

- بالضبط .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى نافذة الحجرة ، وراح ينفث دخان غليونه بضع لحظات أمامها ، قبل أن يقول فى حزم :

- الإسرائيليون يريدون إحراجنا ، وترجيح كفتهم فى المساومة ، على إطلاق سراح جاسوسهم (إيليا) .. لقد اختطفوا (رفعت) ، حتى يمنعونا من إعلان سقوط رجلهم ..

ثم التفت إلى مدير المخابرات ، مستطردًا :

- أراهنك أن هذا هدفهم .. سيعلنوننا به بين لحظة وأخرى .

أجابه مدير المخابرات ، متنهّدًا :

- لقد فعلوها بالفعل يا سيادة الرئيس .

غمغم الرئيس فى توتر :

- فعلوها ؟!

أجابه مدير المخابرات :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. فمنذ ربع الساعة فقط ، وصلتنا رسالة شفرية من (الموساد) ، يقولون فيها : إنهم مستعدون لاستبدال (إيليا) بـ (رفعت) ، خلال ثمان وأربعين ساعة ، بشرط أن يتمّ هذا فى سرية تامة ، وعلى أرض محايدة .

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ ألم أقل لك ؟!

ونفث دخان الغليون مرتين أخريين ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ لقد أخفيت الجزء الخاص بالتهديد والوعيد .. أليس كذلك ؟!

هزّ المدير رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ كلاً يا سيادة الرئيس ، لم يكن هناك تهديد أو وعيد ، أو أية إنذارات صريحة ، لأنهم يعلمون أن الأمر مفهوم ضمنيًا ، إذ إن منحهم مهلة الثمان والأربعين ساعة ، يعنى أنهم سيتخلّصون من (رفعت) ، عند انقضاء المدة ، لو لم يتم التبادل .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا ، وارتسمت على وجهه كل علامات الغضب ، وهو يقول :

ـ يا للسخافة ! هؤلاء القوم ليس لديهم أدنى اعتبار للقيم ، أو الأعراف الدولية .. ألا يخشون أن ننتقم من جاسوسهم ، لو أساءوا إلى (رفعت) .

أجابه مدير المخابرات :

ـ لست أظن هذا يعنيهم كثيرًا يا سيادة الرئيس ؛ فهدفهم

الرئيسى هو منع فضيحة سقوط ضابطهم بأى ثمن ، فإذا ما نجحوا فى هذا ، فلن يعلم أحد به ، أما لو أعلنا الأمر بالفعل ، فستصبح قصة فشلهم مضغة فى الأفواه ، وسينكشف أمر ضابطهم ، بحيث يعتبر ، فى لغة عالمنا ، مجرّد ورقة محترقة ، لن يضيرهم التخلّص منها ، على سبيل الانتقام .

وصمت لحظة ، قبل أن يكمل :

ـ ثم إنهم واثقون من أننا لن نتصرّف بمثل وحشيتهم قط ، مهما كان الثمن .

انعقد حاجبا الرئيس فى حنق ، وهو يعود للتطلّع عبر النافذة ، ويغمغم ، وكأنه يتحدّث إلى نفسه :

ـ كان ينبغى أن نتوقّع منهم هذا .. كان ينبغى أن نتوقّع أى شىء .

تنحنح مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ سيّدى الرئيس .. أعلم أن الموقف دقيق للغاية ، وأنه من غير المنطقى أن نجازف بخسارة رجل مخابرات مخضرم مثل (رفعت) ، بكل ما يحمله من أسرار ومعلومات ، و ...

قاطعه الرئيس بإشارة حازمة من يده ، وهو يقول :

ـ (رفعت) لن يبوح لهم بحرف واحد ، ولو مزّقوه إربًا .

ارتسمت ابتسامة على شفتى مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ ماذا تقترح يا سيادة الرئيس ؟!

ألقى الرئيس السادات نظرة سريعة على ساعته ، قبل أن يجيب فى حسم :

ـ الموعد المحدَّد لإلقاء خطابى هو السابعة من مساء الغد ، وهذا يعنى أن أمامنا إحدى وثلاثين ساعة كاملة ، يمكننا أن نتحرَّك خلالها .

قال مدير المخابرات ، وهو يشدّ قامته فى تأهُّب :

ـ بالضبط يا سيادة الرئيس .

التقط الرئيس نفسًا عميقًا من غليونه ، نفثه فى هواء الحجرة فى قوة ، قبل أن يتابع ، بمنتهى الحسم والحزم :

ـ أريد أن ألقى الخطاب فى موعده يا (كمال) .. فى موعده بالضبط .. وأن أعلن من خلاله نبأ الإيقاع بالجاسوس الإسرائيلى ، كما كان مقرَّرًا من قبل .. هل تفهمنى يا (كمال) ؟!

اتسعت ابتسامة مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ أفهمك بالتأكيد يا سيادة الرئيس .

أطلَّت صرامة الدنيا كلها من عينى الرئيس ، وهو يكمل :

ـ هذا أقوى رد نقدِّمه للإسرائيليين ، وأبلغ جواب يتلقَّونه على إنذارهم ، على نحو يجعلهم يدركون مغبَّة العبث معنا ، وخطورة تحدينا السافر .

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى ارتياح واضح :

ـ من حسن الحظ .. أننى كنت أتوقَّع موقفك هذا يا سيادة الرئيس .

ارتفع حاجبا الرئيس ، وهو يتساءل فى حذر :

ـ كنت تتوقَّعه ؟!

شدّ مدير المخابرات قامته فى حزم ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد يا سيادة الرئيس .. لذا فقد أرسلت رجالنا إلى (نيويورك) ، فور سماعى الخبر ..

هتف الرئيس مبتهجًا :

ـ أحقًا فعلت ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم يا سيادة الرئيس .. العميد (نسيم) سافر منذ ساعة إلى (باريس) ، بصحبة أحد شبابنا ، وفور وصولهما إليها ، سيستقلان طائرة متجهة إلى (نيويورك) ، وستصلها بإذن الله فى الثانية صباحًا بتوقيتنا ، أى فى تمام السابعة مساء ، بتوقيت (نيويورك)(*) .

ثم شدّ قامته أكثر ، مضيفًا فى حزم :

ـ وهذا يعنى أنه سيكون أمامهما أربعة وعشرون ساعة كاملة ، لتنفيذ المهمة .

تألَّقت عينا الرئيس فى إعجاب ، وهو يقول :

ـ حسنًا فعلت يا رجل .. حسنًا فعلت .

وعاد ينفث دخان غليونه ، وهو يستطرد فى اهتمام :

ـ أنا أعرف رجلنا (نسيم) هذا ، ولكن من الشاب ؟!

(*) التوقيت فى (مصر) يسبق الولايات المتحدة الأمريكية بسبع ساعات كاملة .

ابتسم مدير المخابرات ، قائلاً :

ـ أنت تعرفه أيضًا يا سيادة الرئيس .. إنه ذلك الشاب ، الذى نفَّذ وحده عملية (النسر المنفرد)(*) .. الشاب الذى يعتبر من الناحية الرسمية ، لا وجود له ، فى عالم الأحياء .. الشاب الذى يحمل فحسب رمزًا كونيًا يشير إلى العدم ...

وصمت لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ رمز .. (فاى) .

ولم تكن هناك حاجة لإضافة المزيد .

★ ★ ★

(*) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ رقم ٢١ (صانع اللعب وقصص أخرى)

٢ ـ نيـــويـــورك ..

« هل تعتقد أن المصريين سيستسلمون ؟! »

ألقى رجل المخابرات الإسرائيلى (دانى) سؤاله هذا ، على رئيسه (راف) ، الذى انهمك فى مراقبة الطريق ، عبر منظار مقرَّب ، فمطَّ هذا الأخير شفتيه ، وأنزل منظاره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ إنهم عنيدون بطبعهم ، ولكننا سنجبرهم على هذا .

هزَّ (دانى) كتفيه ، وقال :

ـ هذا ما كنت أقصده .. هل يمكننا أن نجبرهم على هذا ؟!

صمت (راف) بضع لحظات ، وأدار عينيه إلى زميلهما (يازوسكى) ، قائلاً :

ـ هل تعتقد أنه بإمكاننا هذا يا (يازوسكى) ؟!

نهض (يازوسكى) من مقعده ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول :

ـ لقد قلتها بنفسك : المصريون عنيدون للغاية ، ولن يرضوا بالاستسلام بهذه البساطة .. سيقاومون حتى آخر رمق ، وسيحاولون الخروج من هذا المأزق بأى ثمن .. ولهذا فمهمتنا الأساسية هى أن نمنعهم من استعادة رجلهم ، بكل الوسائل الممكنة ، حتى يمضى خطاب رئيسهم ، دون الإعلان عن سقوط (إيليا) ، وبعدئذ ستسير المفاوضات لصالحنا حتمًا .

سأله (دانى) فى لهفة :

ـ وما الذى تتوقّع منهم فعله ؟!

صمت (يازوسكى) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ سيرسلون بعض رجالهم إلى هنا ، فى محاولة للعثور على رجلهم واستعادته .

مطّ (دانى) شفتيه ، قائلاً :

ـ يا لحماقتهم !! هل يتصوّرون أنهم قادرون على انتزاعه منا ، فى مثل هذه الظروف ؟!

انعقد حاجبا (يازوسكى) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ لا تستهن بهم يا (دانى) .. إنها أوّل مواجهة لك معهم ، بعد فترة عملك فى الجبهة الشرقية ، ولكن حذار من أن تتصوّر أنهم ضعفاء أو أغبياء .

واندفع (راف) يقول فى حدة :

ـ لا تنس ما فعلوه بنا فى حرب يوم الغفران(*) .

استدار إليه (يازوسكى) فى حركة حادة ، ورماه بنظرة نارية غاضبة ، جعلته يستدرك فى سرعة وارتباك :

ـ أعنى أنهم .. إلى حد ما .. ربما كانوا ...

قاطعه (يازوسكى) فى صرامة :

ـ هذا لن يتكرّر قط .

(*) الاسم الذى يطلقه الإسرائيليون على حرب أكتوبر .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف المجاور له ، فأسرع يلتقطه فى لهفة ، قائلاً فى صرامة عصبية :

ـ من المتحدّث ؟!

التقى حاجباه فى شدة ، على نحو يوحى بأنه يتلقّى معلومة بالغة الأهمية ، حتى إن (دانى) اندفع نحوه ، متسائلاً :

ـ هل أر .....

قاطعه بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول لمحدّثه ، عبر الهاتف :

ـ لا تجعله يغيب عن عينيك قط .. اتبعه بمنتهى الدقة ، واطلب من (درو) و(فيليب) أن يساعداك ، حتى نصل إليكم .. اسمعنى جيّدًا .. اترك جهاز اللاسلكى مفتوحًا طوال الوقت .. لا أريد أية عقبات .. هل تفهم ؟!

وأنهى الاتصال بحركة عنيفة ، وهو يلتقط مسدسه ، ويجذب مشطه فى قوة ، ثم يتركه ليرتدّ إلى موضعه ، بدوى معدنى مكتوم ، قبل أن يدسّه فى جرابه ، المعلّق تحت إبطه ، و(راف) يسأله فى توتر :

ـ هل أرسل المصريون أحد رجالهم .

أجابه (يازوسكى) فى صرامة :

ـ ليس أحد رجالهم فحسب ، بل واحدًا من أفضل رجالهم على الإطلاق .. (نسيم) .

انعقد حاجبا (راف) فى حدة ، فى حين هتف (دانى) :

ـ (نسيم) ؟! هل تقصد ذلك الذى ...

قاطعه (يازوسكى) فى صرامة ، وهو يندفع نحو الباب :

ـ هو نفسه .

ثم استدار إليهما ، مستطردًا بلهجة آمرة :

ـ واصل مراقبة المنطقة يا (راف) .. أما أنت فأجر اتصالاً بالرجال كل نصف ساعة ، وتأكد من أنهم يحكمون قبضتهم على المصرى الأسير طوال الوقت ، وأكد لهم الأوامر الخاصة بقتله على الفور ، إذا ما حاول المصريون استعادته .. هل تفهم ؟! قتله على الفور ، دون شفقة أو رحمة .

قفز (دانى) يلتقط سماعة الهاتف ، وهو يقول :

ـ أمرك يا أدون (يازوسكى) .. أمرك .

وفى نفس اللحظة ، التى اندفع فيها (يازوسكى) خارج المقر السرى ، كان (نسيم) ينهى إجراءات دخوله إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، ويغادر مطار (جى. إف. كيه) فى هدوء ، حاملاً حقيبة متوسطة ، وأشار إلى إحدى سيارات الأجرة ، قائلاً بصوت مسموع :

ـ الشارع الثالث والثلاثون .

قالها ، وقفز داخل السيارة ، التى انطلقت به على الفور ، ولم تكد تبتعد بضعة أمتار عن المطار ، حتى غمغم سائقها بالعربية :

ـ كيف حال الرجال فى (القاهرة) ؟!

اعتدل (نسيم) فى مقعده ، وهو يجيب :

ـ الجميع بخير يا (طارق) .. قل لى : هل يتبعوننا ؟!

أجابه بابتسامة باهتة :

ـ منذ غادرنا المطار يا سيِّد (نسيم) .

هزَّ رأسه متفهِّمًا ، وهو يقول :

ـ عظيم .. اذهب بنا إلى الشارع الحادى والعشرين إذن .

سأله الرجل :

ـ وماذا عن الشارع الثالث والثلاثين ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لن تبدو اللعبة أنيقة ، لو أننا ذهبنا إلى العنوان نفسه ، الذى سمعه كل مخلوق يفهم العربية فى المطار .

صمت (طارق) بضع لحظات ، وهو ينطلق بالسيارة ، ويختلس النظر ، عبر مرآتها الجانبية ، إلى السيارة السوداء الكبيرة ، التى تتبع سيَّارته كظلّها ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ معذرة يا سيِّد (نسيم) .. أعلم جيِّدًا أنه ليس من الصواب أن ألقى الأسئلة بهذا الشأن ، ولكن بم يفيدنا إضاعة وقتهم ووقتنا فى تتبُّعك .

صمت (نسيم) لحظة ، ثم لم يلبث أن قال :

ـ أنت على حق يا (طارق) .

همَّ الرجل بإلقاء سؤال آخر ، لولا أن استدرك (نسيم) فى صرامة :

ـ ليس من الصواب أن تلقى الأسئلة بهذا الشأن .

احتقن وجه (طارق) ، وأدرك أنه قد ارتكب خطأ غبيًّا ، فى حين ألقى (نسيم) عبارته الصارمة ، ثم استرخى فى مقعده فى هدوء ، وكأن شيئًا فى الكون كله لا يقلقه ، وأسبل جفنيه على نحو محيِّر ، وشفتاه تحملان ابتسامة غامضة .. للغاية ..

★ ★ ★

كل شىء سار وفقًا للخطة ، على نحو مدهش ..

رجال (الموساد) ، الذين يراقبون مطار (نيويورك) ، انطلقوا على الفور خلف (نسيم) ، باعتباره رجل المخابرات المصرى الفذ ، الذى حضر خصيصًا من (القاهرة) ، ليتصدّى لعملية اختطاف (رفعت) ..

ولم ينتبه شخص واحد إلى (فاى) ، الذى وصل على الطائرة نفسها ، وأنهى إجراءات الوصول فى بساطة ، كشاب مصرى عادى ، وصل إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، فى رحلة سياحية بسيطة ..

ملامحه العادية ، وتصرّفاته التلقائية ، لم تجذب إليه الأنظار قط ، وهو يحمل حقيبته الصغيرة ، ويغادر المطار ، مختلسًا النظر إلى تلك السيارة الكبيرة ، التى انطلقت خلف سيارة الأجرة ، التى استقلّها (نسيم) ..

وفى خفة وسرعة ، اتجه نحو سيارة أجرة أخرى صفراء ،

انشغل سائقها بإبدال أحد إطاراتها ، فى تكاسل عجيب ، كما لو أن العمل لا يعنيه على الإطلاق ، أو أنه يرغب فى إضاعة بعض الوقت ، كسبًا للراحة ..

وبلكنة عربية واضحة ، ولغة أمريكية ركيكة ، هتف الشاب بالسائق :

ـ هل توجد فنادق عند تمثال الحرية ؟!

رفع السائق ، صاحب الملامح الإيطالية عينيه إليه ، فى تراخ ممل ، وقال :

ـ هذا يتوقَّف على نوع العملة التى تحملها .

التقط الشاب من جيبه ورقة من فئة المائة فرنك الفرنسى ، وناولها للسائق ، وهو يتساءل ، بنفس اللغة الركيكة :

ـ هل تصلح هذه ؟!

راجع السائق رقم الورقة المالية فى اهتمام ، قبل أن يدسّها فى جيبه ، قائلاً :

ـ بورقة كهذه يمكننى أن أضمن لك مكانًا ، داخل تمثال الحرية نفسه .

ومع آخر حروف كلماته ، أحكم ربط إطار السيارة فى سرعة ، ولم تمض ثوان عشر ، حتى كانت تنطلق حاملة (فاى) ، فى عكس الاتجاه ، الذى انطلقت فيه سيارة (نسيم) ..

وما إن ابتعدت السيارة عن المطار ، حتى قال السائق فى اهتمام :

ـ أخبرونى أنك تجيد التحدّث بالإنجليزية .

نطقها بأمريكية ذات لكنة إيطالية ، فأجابه (فاى) فى هدوء ، وبلغة سليمة للغاية :

ـ هذا صحيح .

ارتفع حاجبا السائق ، فى دهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! إنك تتحدّثها جيِّدًا بالفعل !! لقد تصوَّرت فى المطار أن ...

قاطعه (فاى) فى اهتمام :

ـ أنت إيطالى .. أليس كذلك ؟!

أطلق السائق ضحكة قصيرة ، قبل أن يجيب :

ـ بل مصرى ابن مصرى .. والدتى فقط إيطالية ، وحتى هى تعشق (مصر) حتى النخاع ، و ...

عاد (فاى) يقاطعه فى هدوء :

ـ عظيم .

أدرك السائق على الفور أن الشاب لا يرغب فى الاستطراد فى الحديث ، فمطَّ شفتيه ، ولاذ بالصمت ، فى حين اعتدل (فاى) فى مجلسه ، وراح عقله يسترجع الموقف فى سرعة :

ـ « الأستاذ فى خطر يا (فاى) .. »

تلك العبارة التى نطق بها مدرِّبه (نسيم) فى (القاهرة) ، كادت تنتزع قلبه من بين ضلوعه ، فور انتهائه من تدريبات الرماية ، حتى إنه وجد نفسه يهتف فى لهفة :

ـ كيف ؟!

أشار (نسيم) بيده ، وهو يجيب فى مرارة :

ـ الإسرائيليون الأوغاد اختطفوه فى (نيويورك) .

تفجَّر عندئذ غضب هادر فى أعماقه ، حتى إنه لم ينطق بحرف واحد ، وهو يتطلَّع فى توتر إلى (نسيم) ، الذى أضاف ، ملوِّحًا بقبضته :

ـ لا بد أن نستعيده سالمًا يا (فاى) .. وبأى ثمن .

كلمة واحدة ، استطاع النطق بها عندئذ ..

كلمة واحدة ، انطلقت من قلبه ، وعروقه ، وكيانه كله ، إلى شفتيه مباشرة ..

كلمة ، حملت كل حزمه ، وحسمه ، ولهفته ، وإصراره .

« متى ؟ » ..

والتفت إليه (نسيم) أيضًا بكيانه كله ، وهو يجيب :

ـ الآن يا (فاى) .. سنسافر إلى (نيويورك) الآن .

وكعادته ، لم يلق أية أسئلة ..

لم يسأل حتى كيف سيسافر إلى (نيويورك) ..

وماذا سيحدث هناك ؟!

ما الخطة التى سيتم اتباعها ؟!

وكيف يمكن استعادة الأستاذ ؟!

أستاذه ، الذى انتشله من قلب الموت ، وبعثه فى هذا العالم الجديد ..

عالم القوة ، والغموض ، والسر ، والأسرار ..

عالم الخطر ..

الخطر بلا حدود(*) ..

وبسرعة ، وبكلمات موجزة للغاية ، شرح له (نسيم) الخطة ، وهما فى طريقهما إلى المطار ، ثم لم يلبث أن ناوله كتابًا صغيرًا ، يحمل غلافه عنوان رواية شهيرة ، وقال فى حزم صارم :

ـ ستجد كل شىء هنا .. لم يكن هناك وقت للشرح والتدريب .. أعلم أن الخطة المكتوبة عمل يتنافى مع أبسط القواعد المعمول بها ، فى عالم المخابرات ، ولكن هذا كان البديل الوحيد أمامنا ، فسنسافر كشخصين مستقلين ، ولن نتبادل حرفًا واحدًا ، طوال رحلتنا إلى (أمريكا) .. لا ينبغى أن يدرك مخلوق واحد أن أحدنا يعرف الآخر .. هل تفهم ؟!

أومأ برأسه متفهِّمًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ونفَّذ ما أمره به مدرِّبه ..

وفى الطائرة ، قرأ الخطة كلها حرفًا حرفًا ، حتى حفظها عن ظهر قلب ، ثم حمل الكتاب إلى دورة المياه ، وأشعل فيه النار ، وترك نظام الصرف يلقيه فى السماء ، فوق (المحيط الأطلنطى) ..

(*) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ (البعث وقصص أخرى) .. رقم ٢٠

وها هو ذا ينفذ الجزء الخاص به من الخطة ..

وبمنتهى الدقة .

« ما الذى ترغب فى معرفته بالضبط ؟! »

انتزعه السائق نصف الإيطالى من أفكاره ، بسؤاله هذا ، فالتفت إليه ، مجيبًا فى سرعة :

ـ أين مكتب (الموساد) هنا ؟!

ابتسم السائق ، مجيبًا :

ـ فى الشارع السابع .. بناية قديمة من ست طوابق .. مكتبهم يحتلّ الطابق الخامس بأكمله ، وعليه لافتة باسم (كوهين ـ كوهين) .. أعمال مقاولات .

ثم تساءل فى لهفة :

ـ هل ترغب فى زيارتهم ؟!

تجاهل الشاب السؤال تمامًا ، وهو يلقى نظرة عبر النافذة المجاورة ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ هناك سيارة تتبعنا .

انعقد حاجبا السائق نصف الإيطالى ، وهو يقول :

ـ لقد لاحظت هذا .

ثم أردف ، وهو يزيد من سرعته :

ـ كيف انتبهوا إلى وجودك ؟! لقد سار كل شىء على ما يرام .

نطقها ، ويده تتسلل إلى سترته ، فصمت الشاب لحظة ، قبل أن يقول فى هدوء :

ـ فيما عدا أمرًا واحدًا .

سأله الرجل ، وهو يسحب مسدسه فى بطء :

ـ وما هو ؟!

انقضّ عليه (فاى) فجأة ، وأحاط عنقه بساعده الأيسر ، وهو يجيب :

ـ إنك لست الشخص المناسب .

انحرفت السيارة فى عنف ، والسائق نصف الإيطالى ينتزع مسدسه فى حدة ، ولكن الشاب قبض على معصمه بأصابع كالفولاذ ، وهو يكمل فى صرامة :

ـ لقد تبادلت معى عبارات السر المتفق عليها ، ولكنك لست (ماريو) ، الذى كان من المفترض أن ينتظرنى فى المطار .

هتف السائق ، وهو يقاوم فى استماتة :

ـ (ماريو) الأحمق هذا يرقد جثة هامدة فى أعماق البحيرة المتجمدة ، منذ ساعتين على الأقل ، وأصابعه المقطوعة أجبرته على البوح بكل أسراره .. كنا نعلم أنه سيلتقى بشخص ما هنا .

اعتصر (فاى) عنقه ، وهو يقول صارمًا :

ـ وعندما لم يتعامل معه زميلى ، أدركتم أنه يوجد شخص آخر .

صاح السائق ، وهو يضغط فرامل السيارة فى قوة :

ـ نعم أيها المصرى الغبى .. إننا نقرأ أفكاركم ، كما لو كانت كتابًا مفتوحًا .. لقد أوقعنا بك .. لن تنجو من هذا الفخ قط .

توقفت السيارة بصرير عال عنيف ، وانطلق من خلفها صرير آخر ، قبل أن ترتطم بها سيارة ثانية فى قوة ..

ومع الاصطدام ، اندفع جسد السائق إلى الأمام ، ولكن ساعد (فاى) احتجز عنقه بكل قوته ، فارتفع وسط صرير إطارات السيارات صوت قرقعة مكتومة ، جحظت بعدها عينا السائق ، وهو ينهار جثة هامدة مدقوقة العنق ..

ومع عنف الحادث ، الذى ارتطمت فيه أربع سيارات بعضها بالبعض ، ضغط سائق سيارة (الموساد) الثانية فرامل سيارته بكل قوته ، ثم انتزع مسدسه ، هاتفًا :

ـ ذلك المصرى كشف الأمر .

قالها ، وقفز من السيارة مع زميليه ، وكل منهم يحمل مسدسه ، واندفعوا نحو سيارة الأجرة الصفراء ، وهو يهتف :

ـ حاصروا السيارة .. لا تسمحوا له بالهروب .. اطلقوا النار فور الـ ...

بتر عبارته فى عصبية شديدة ، وهو يفتح باب السيارة فى قوة ..

فباستثناء السائق نصف الإيطالى ، الذى سقط برأسه على عجلة القيادة ، كانت السيارة خالية تمامًا ، ولم يكن هناك أثر لـ (فاى) ..

أدنى أثر .

★ ★ ★

٢ ـ المهمـــــة ..

لم يكد رنين هاتف سيَّارة (يازوسكى) ينطلق ، حتى اختطفه فى حركة سريعة ، قائلاً :

ـ (يازوسكى) .. من المتحدث ؟!

أتاه صوت أحد رجاله ، يقول :

ـ إنه أنا يا أدون (يازوسكى) .. لقد كنت على حق فى تخمينك .. كان هناك رجل ثان .

أجابه فى صرامة :

ـ إنه استنتاج وليس تخمينًا يا هذا .. لقد درست أساليب المصريين الجديدة ، حتى خبرت نظمهم الجديدة .

ثم اعتدل فى مجلسه ، وهو ينطلق بسيَّارته فى شوارع (نيويورك) ، واستطرد فى اهتمام :

ـ وأين ذلك المصرى الثانى الآن ؟!

ارتبك الرجل ، وتنحنح لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ لقد استقلّ سيارة (ليوناردو) ، التى استولينا عليها ، و ...

بتر عبارته لحظة ، فصاح به (يازوسكى) فى حدة صارمة :

ـ وماذا ؟!

تنحنح الرجل مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ لقد اختفى يا أدون (يازوسكى) .

صرخ (يازوسكى) فى غضب هادر :

ـ اختفى ؟!

اندفع الرجل ، يقول فى توتر :

ـ لقد تتبّعناه يا أدون (يازوسكى) ، وكان (ليوناردو) يقوده إلى حيث اتفقنا ، ولكن يبدو أنه قد كشف أمره بوسيلة ما ، إذ إنه قد هاجمه فجأة ، و ... وقتله .

انعقد حاجبا (يازوسكى) فى شدة ، وهو يهتف :

ـ قتله ؟!

أجاب الرجل :

ـ نعم يا سيِّدى .. لقد دقّ عنقه ، وفرّ من السيارة ، وسط زحام (نيويورك) ، قبل أن نبلغها ، ولقد بحثنا عنه فى كل مكان ، ولكن هذا لم يجد ، إذ إن الطريق مزدحمة للغاية الآن ، كما أننا نجهل ملامحه ، و ...

قاطعه (يازوسكى) :

ـ تجهلون ملامحه ؟! أىّ قول غبى أحمق هذا يا رجل ؟! ألم تلتقطوا له بعض الصور ؟!

تنحنح الرجل مرة أخرى ، وأجاب :

ـ بالطبع يا سيِّدى ، ولكننا لم نقم بتحميض وإظهار الفيلم بعد ، كما أن الزوايا التى التقطنا بها الصور ، لم تكن تكفى لـ ....

قاطعه (يازوسكى) فى ثورة :

ـ كفى .. كفى .. سآمر بنسف رءوسكم ، لـو أضفت عذرًا واهيًا آخر ..

صمت الرجل فى ارتباك ، فى حين تابع (يازوسكى) ، وكأنما يحدِّث نفسه :

ـ ولكن مهلاً .. لماذا أرسلوا ذلك الآخر بصحبة مخضرم مثل (نسيم) ؟!

هزَّ الرجل ، على الطرف الآخر كتفيه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وكأنما يراه (يازوسكى) ، الذى لم يكن بحاجة فعليًا إلى جوابه ، وهو يواصل حديثه مع نفسه :

ـ إنهم يعرفون جيدًا أن صورة (نسيم) محفوظة لكل منا ، بعد عملياته الناجحة القوية ضدنا ، وليس من المنطقى أن يتمَّ إرساله مع شخص مجهول لنا ، إلا إذا ...

بتر عبارته عند هذا الحد ، فسأله الرجل فى فضول :

ـ إلا ماذا يا أدون (يازوسكى) ؟!

انتبه (يازوسكى) بغتة إلى أن الرجل مازال على الخط ، فصاح به فى حنق :

ـ أنْهِ الاتصال أيها الغبى .. هذا ليس من شأنك .

قالها ، وأنهى الاتصال فى حدة ، قبل أن يعقد حاجبيه ، ويكمل :

ـ ترى هل كان الغرض الوحيد لإرسال (نسيم) ، هو جذب أنظارنا ، بعيدًا عن الشخص الآخر ؟! لا .. هذا ليس منطقيًا ..

إنهم بهذا يعلنون أنهم بصدد محاولة لإنقاذ رجلهم ، ثم إنهم لو أرسلوا الآخر وحده ، لما انتبهنا إليه .. لماذا جاء (نسيم) إذن ؟! هناك سبب منطقى حتمًا .. المصريون ليسوا أغبياء .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يعتصر عقله أكثر وأكثر ، فى محاولة لاستيعاب هذا الأمر ، قبل أن ينتزعه رنين الهاتف المفاجئ من محاولته هذه ، فاختطف سمَّاعته قائلاً فى خشونة :

ـ ماذا هناك ؟!

أتاه صوت (فيليب) ، وهو يجيب :

ـ إنه أنا يا سيِّدى .. لقد تعقَّبنا ذلك المصرى ، متصوِّرين أنه فى طريقه إلى الشارع الثالث والثلاثين ، ولكن سيارة الأجرة أنزلته فى الشارع الحادى والعشرين ، أمام متجر ضخم للبقالة .. هل نتبعه داخله ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ بالتأكيد .. لا تدعوه يغيب عن بصركم قط ، حتى تصلكم منى أوامر أخرى .

قالها ، وأنهى المحادثة ، وهو يقول لنفسه :

ـ مستحيل ! مستحيل أن تكون قد أتيت من (القاهرة) إلى (نيويورك) ، لتبتاع بقالتك من متجر فى (نيويورك) يا سيِّد (نسيم) .. هناك هدف حتمًا وراء هذه التصرفات غير المفهومة .

عاد حاجباه ينعقدان بشدّة ، وهو يعاود التفكير ، ويعتصر عقله أكثر ، وأكثر .. وأكثر ..

وفجأة تألّقت عيناه ، وهو يهتف :

ـ آه .. بالتأكيد .. تمامًا مثلما كنا سنفعل ، فى ظروف مماثلة .. لقد حدث كل شىء بسرعة ، والوقت أمامهم ضيق للغاية ، ولا بد من التحرك بأقصى سرعة ، والعمل على تفادى الأخطاء ، بأفضل ما يمكن ، وهذا يحتم النشاط والحكمة والخبرة ،

فى آن واحد .. ولأنهم ما زالوا يفتقرون إلى المعلومات ، فهم بحاجة إلى شخص يجيد التخطيط مثل (نسيم) ، ولكنهم فى الوقت ذاته ، فى أمسّ الحاجة إلى شخص يجيد التنفيذ أيضًا .. ولهذا أرسلوا الثانى .. فريق صغير متكامل .. مخطِّط ، يمكنه وضع خطة سريعة محكمة ، فى ضوء ما يمكن التوصُّل إليه من معلومات ، والثانى منفذ قوى ، لديه القدرة على خوض النيران ، دون أن يطرف له جفن ، لبلوغ هدفه ، مهما كان الثمن .. هذا ما فعله المصريون بالتأكيد .

وضغط فرامل سيارته فى حماس ، وهو يتجه بها إلى جانب الطريق ، على نحو مفاجئ ، وتجاهل صرير إطارات السيارات ، التى تفادت الارتطام به فى صعوبة ، وسباب السائقين الغاضبين ، وكأنه لم يعد يدرى بالعالم من حوله .

وداخل سيارته المتوقّفة ، أمسك جانبى رأسه براحتيه ، وهو يتابع فى انفعال :

ـ عظيم .. أمامنا إذن مخطِّط ومنفِّذ .. ومن الواضح أن الأخير لا يجيد التخطيط ، بأى حال من الأحوال ، وإلا لما كانت هناك ضرورة للمجازفة بالأوّل .. إذن فأفضل وسيلة لكسب المعركة ، هى تطبيق المبدأ القديم .. (فرّق تسُد) .. فلنفصل المخطِّط عن المنفِّذ ، ونعمل على ألاّ يلتقيا قط ، مهما كان الثمن .

ثم التقط هاتف السيّارة ، وضغط أزراره فى سرعة ، ولم يكد يسمع صوت محدّثه ، حتى قال فى حزم :

ـ (يازوسكى) .. اسمعنى جيدًا يا (فيليب) .. أما زال المصرى نصب أعينكم ؟

أجابه (فيليب) فى سرعة :

ـ بالتأكيد يا سيدى .. إننا نراقبه ونتبعه أينما ذهب .. إنه يبتاع الآن بعض قطع الحلوى ، و ...

قاطعه (يازوسكى) فى حزم صارم :

ـ أريد هذا الرجل يا (فيليب) .

ردَّد الإسرائيلى فى دهشة :

ـ تريده ؟!

أجابه فى صرامة أكثر :

ـ نعم .. أريده يا (فيليب) .. أريده حيًا أو ميتًا .. المهم ألا يتحرك بحرية داخل (نيويورك) ، منذ هذه اللحظة .. هل تفهم .. يا (فيليب) ؟

أتاه صوت (فيليب) صارمًا قاسيًا ، وهو يجيب :

ـ أفهم يا أدون (يازوسكى) .. أفهم .

وأنهى (يازوسكى) الاتصال ، وهو يعقد حاجبيه مرة أخرى فى صرامة ، مغمغمًا :

ـ الآن ستدركون أن الخطأ لا يتكرَّر مرتين أيها المصريون .. لا يتكرَّر أبدًا .

نطقها ، ولسان حاله يلقى حكمًا أخيرًا على (نسيم) .

حكمًا بالإعدام ..

★ ★ ★

لم تكن المرَّة الأولى ، التى يزور فيها الشاب (نيويورك) ، فقد قضى فيها بعض الوقت فى الماضى ، كجزء من تدريباته الأساسية(*) ، لذا فقد كان يحفظ شوارعها وطرقاتها عن ظهر قلب ، مما ساعده على الإفلات من خصومه ، والتحرُّك فى سرعة وخفَّة ، حتى بلغ ذلك المنزل الآمن ، الذى حفظ عنوانه ، من تلك الرواية الزائفة على الطائرة ..

وهناك استقبله شخص ياباني الملامح ، سأله فى حرارة ، بعد أن تبادلا عبارات التعارف الشفرية المتفق عليها ، وبلهجة مصرية خالصة :

ـ حمدًا للَّه على سلامتك .. أين السيِّد (نسيم) .

أجابه فى اقتضاب :

ـ لقد افترقنا فى المطار .

سأله الرجل :

ـ لماذا ؟ كان ينبغى أن ...

قاطعه الشاب فى سرعة وحزم :

ـ هل حصلت على المعلومات المطلوبة ؟!

استوعب الرجل الموقف على الفور ، ولم يحاول تكرار سؤاله ، وهو يجيب :

ـ إلى حد ما .

(★) راجع كتاب كوكتيل ٢٠٠٠ (البعث وقصص أخرى) .. رقم ٢٠

وناوله ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة(*) ، وهو يضيف :

ـ الإسرائيليون لهم ستة مكاتب هنا فى (نيويورك) ، ثلاثة منها يدركون جيّدًا أننا نعرفها ، لذا فليس من المنطقى أن يحاولوا إخفاء رجلنا فيها ، والثلاثة الأخرى موزّعة بين (بروكلين) و(ماتهاتن) ، ومنذ ثلاثة أيام ، استأجر بعضهم مخزنًا فى الميناء ، وابتاع ملحقهم العسكرى شقة صغيرة فى (هارلم) .

غمغم الشاب ، فى شىء من الدهشة :

ـ (هارلم)(**) ؟!

أومأ الياباتى برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ لقد أثار هذا دهشتى أيضًا ، خاصة وأنه قد أحاط عملية الشراء هذه بسرية تامة ، وكأنه يؤدى عملاً حربيًّا ، كما استعان بفريق من بلطجية (هارلم) لحراسة المكان .

ثم مال نحو الشاب ، مضيفًا ، وهو يلوّح بسبّابته :

ـ لو أردت رأيى ، فهذا هو المكان المناسب .

ألقى الشاب نظرة طويلة على الورقة ، قبل أن يقول فى اقتضاب :

ـ ليس بالضرورة ..

تراجع الياباتى فى دهشة ، مغمغمًا :

(*) لم تكن أجهزة الكمبيوتر الصغيرة معروفة ومنتشرة ، فى ذلك الحين .

(**) هارلم : حى الزنوج ، وأكثر الأحياء عنفا وشراسة فى (نيويورك) .

ـ كيف ؟!

ولم يجب الشاب سؤاله ..

بل لم يبد حتى أنه قد سمعه ..

فهذا ما لقّنه إياه أستاذه (نسيم) منذ التحق بجهاز المخابرات العامة ..

« لا تفصح قط عما لديك .. »

« الناس دائمًا مشحونة بالفضول ، وعليك أن تتجاهل هذا تمامًا .. »

« رجل المخابرات الناجح ، هو من لا تشفّ ملامحه قط ، عما يدور فى أعماقه .. »

وهكذا واجه الياباتى بوجه جامد كالحجر ، وهو يطوى الورقة ، ويشعل فيها النار ، فى منفضة السجائر ..

ومرة أخرى ، وبفضول أكثر ، سأله الياباتى :

ـ ألا تبدو لك شقة (هارلم) هذه موقعًا مثاليًّا ، لإخفاء شخص تم اختطافه عنوة ؟! عجبًا ! لماذا ابتاعها الملحق العسكرى الإسرائيلى إذن بمنتهى السرية ، وأحاطها بجيش من المجرمين ؟!

رمقه الشاب بنظرة صامتة جافة ، دون أن يجيب سؤاله ، أو يحاول إشباع لمحة واحدة من فضوله ..

ومرة أخرى ، تردّدت فى أعماقه كلمات الأستاذ ..

« أفضل وسيلة ، لجذب الأنظار إلى مكان ما ، هى أن تتظاهر بإحاطته بالسرية .. »

« إذا كان أمامك موضعان ، لتخفى فيهما كنزًا ثمينًا ، فأحط أحدهما بأكبر حراسة ممكنة ، وأخف الكنز فى الآخر .. »

تردَّدت العبارات فى أعماقه طويلاً ، وهو يتطلَّع أمامه فى شرود ، فسأله اليابانى باللغة العربية فى اهتمام :

ـ هل سيتأخَّر السيِّد (نسيم) طويلاً ؟

انعقد حاجبا الشاب فى شدَّة ، وهو يلقى نظرة قلقة على ساعته :

ـ نعم .. لقد تأخَّر السيِّد (نسيم) بالفعل ..

كان من المفترض ، طبقًا للخطة ، أن يصل إلى هنا منذ ربع الساعة ..

والسيِّد (نسيم) دقيق للغاية فى مواقيته ..

فلماذا تأخَّر إذن ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

دار التساؤل القلق فى أعماقه ، دون أن يدرى أن السيِّد (نسيم) كان يواجه ، فى تلك اللحظة أكبر خطر عرفه ، فى السنوات الثلاث الماضية ..

أكبر خطر على الإطلاق ..

★ ★ ★

انطلقت ضحكة كبيرة ساخرة ، فى أعمق أعماق (نسيم) ، وهو يجوِّل فى هدوء ، داخل متجر البقالة الواسع ، فى قلب

(نيويورك) ، ويختلس النظر إلى الإسرائيليين الثلاثة ، الذين يتبعونه كظله طوال الوقت ..

كان يريد أن يمنح (فاى) فرصة مناسبة ، لبلوغ المنزل الآمن ، والحصول على كل المعلومات المطلوبة ، قبل أن يبدأ هو فى مناورة الإسرائيليين ، والفرار منهم ، وسط زحام (نيويورك) ، ليلحق به هناك ..

حيث تبدأ المهمة ..

كان يعتمد تمامًا على (فاى) هذه المرة ..

يعتمد على كل ما درَّبه ولقَّنه إياه ، طوال السنوات الماضية ..

وكان يؤمن تمامًا بقدرته على تنفيذ المهمة ..

فهو يدرك مدى صلابته ، وقوَّته ، وإصراره ..

ويعلم جيِّدًا أنه إذا ما أسندت إليه مهمة ما ، فسيقاتل بكل قوته لتنفيذها على خير وجه ، مهما كانت العقبات ، أو الظروف والملابسات ..

وكانت هذه أفضل صفاته ..

إرادة فولاذية ، وإصرار لا ينقطع قط ..

لهذا كانت الإدارة تعتمد عليه تمامًا ، فى كل العمليات الخطيرة العنيفة ، التى تحتاج إلى خبراته السابقة فى قوات الصاعقة ، وإرادته التى تقهر الصلب ، و ...

توقَّفت أفكاره بغتة ، عندما انتبه إلى أن أحد الإسرائيليين الثلاثة يتجه نحوه مباشرة ..

وبسرعة وحيرة ، تساءل عقله عما يمكن أن يعنيه هذا ..

المفترض ، طبقًا لقواعد المراقبة ، أن يحافظ المراقِب على مسافة منطقية ، تفصله عن المراقَب ، فى كل الأحوال ؛ حتى لا ينكشف أمره قط ..

وكسر هذه القواعد قد يعنى أن المراقِب شخص يفتقر إلى الكفاءة ..

أو أن الأمر قد تجاوز حدود المراقبة بالفعل ..

لم يكد يبلغ تلك النقطة من أفكاره ، حتى تناهى إلى مسامعه صوت مشط مسدس من طراز (بيريتا) ، ينجذب ويرتدّ إلى موضعه ، و ...

وبسرعة مدهشة ، وكرد فعل تلقائى ، وثب (نسيم) جانبًا ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها رصاصة صامتة ، من مسدس (فيليب) ، أصابت إحدى زجاجات المياه الغازية ، فى نفس الموضع ، الذى كان يحتلّه جسده ، فانفجرت بدوى عنيف ، داخل متجر البقالة ..

ولم يحتج (نسيم) لأكثر من جزء من الثانية ، ليستوعب الموقف كله ، ويدرك أن الأمور قد تغيَّرت بالفعل ، وأن عملية المراقبة قد انتهت ..

أو بمعنى أدق ، تحوَّلت إلى عملية أخرى ..

عملية اغتيال ..

والعجيب أن هذا كان يخالف كل القواعد والأعراف المعمول بها ،

فى عالم المخابرات ، فى كل دول العالم ، إلا أن الوقت لم يكن يسمح بالتوقُّف للتفكير فى هذا أو استنكاره ..

لذا ، فقد تحرَّك (نسيم) بسرعة مدهشة ، وبخفة تتفوَّق كثيرًا على عمره ، فدار على عقبيه ، وانحنى يتفادى رصاصة أخرى من مسدس (فيليب) ، نسفت واجهة مبرِّد الخضراوات ، قبل أن يعتدل فى سرعة ، ويهوى على فك هذا الأخير بلكمة كالقنبلة ، أطاحت به مترين إلى الخلف ، ليرتطم بزميله (مورو) ، ويسقط الاثنان أرضًا فى عنف ..

وكرد فعل تلقائى ، انتزع (درو) مسدسه ، وسط حالة الذعر العنيفة ، التى سادت المكان ، وصوَّبه إلى (نسيم) ..

ولكن (نسيم) وثب فى خفة ، واختطف واحدة من علب الأطعمة المحفوظة ، وألقى بها بكل قوته نحو (درو) ..

وانطلقت رصاصة (درو) ، وتجاوزت عنق (نسيم) بسنتيمتر واحد ، قبل أن ترتطم علبة الأطعمة المحفوظة بوجهه ، فيطلق صرخة ألم عنيفة ، وهو يسقط على ظهره فى قوة ..

وقبل حتى أن يرتطم جسده بالأرض ، كان (نسيم) يثب عبر كومة من علب مساحيق الغسيل ، ويعدو نحو باب المتجر ، الذى تزاحم عنده رواد المكان ، يحاولون الفرار منه ، بعد إطلاق النيران داخله ..

وكان من الواضح أن الخروج من المكان فى سرعة أمر مستحيل ، فى ظلّ الذعر والزحام ، كما أن إطلاق الرصاصات

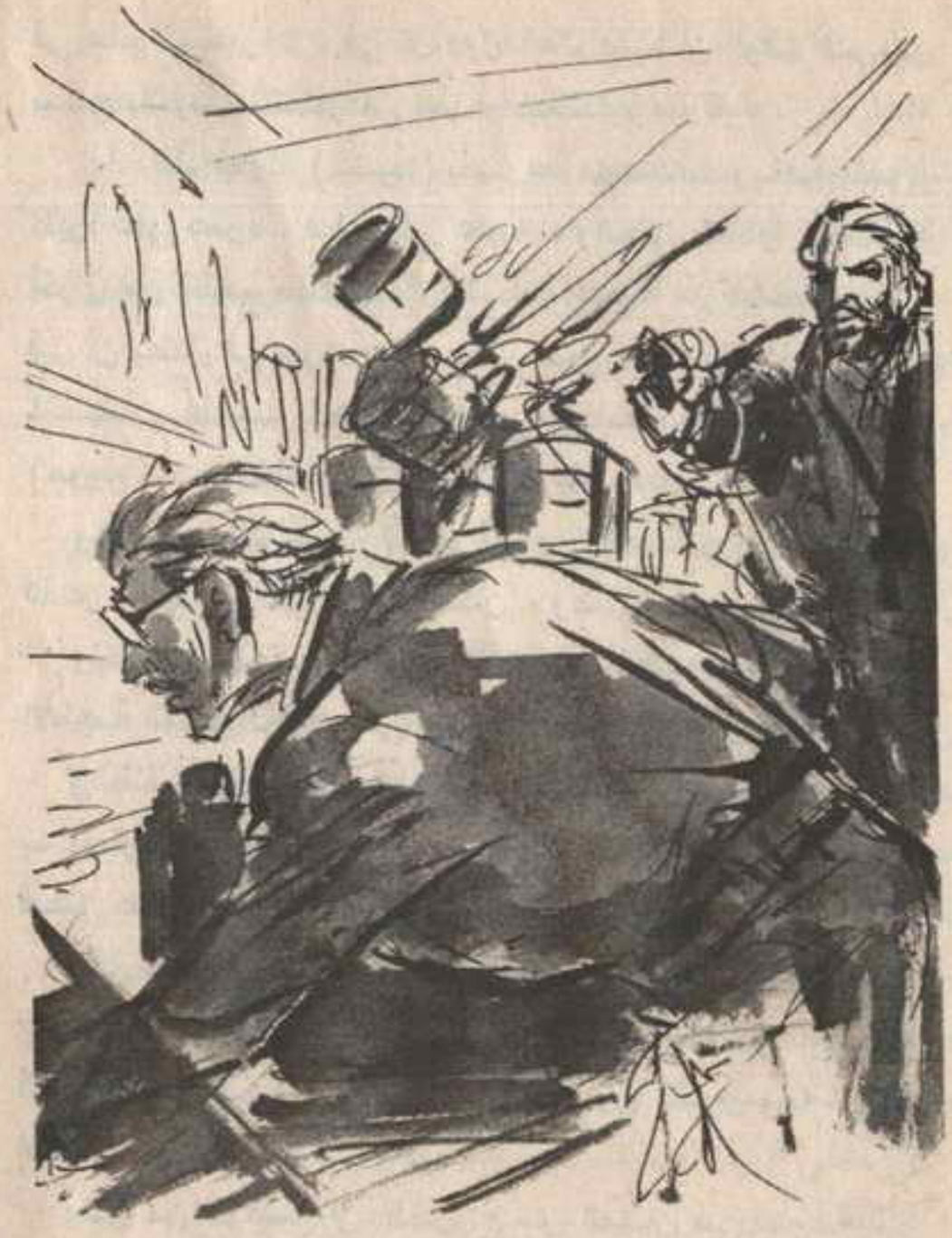

نحوه ، فى هذا الاتجاه ، سيؤدى حتمًا إلى إصابة بعض رواد المتجر ..

لذا ، فقد تراجع (نسيم) بالتفافة سريعة ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها (فيليب) ، وهو يحاول إيقاف نزيف أنفه ، هاتفًا :

ـ لا تسمحا له بالفرار ، مهما كان الثمن .

لم يكن (نسيم) يحمل سلاحًا ، لذا فقد اندفع بكل قوته ، محاولاً بلوغ الباب الخلفى للمتجر ، عبر مخزن المؤخرة ..

وبكل الغضب والشراسة ، اندفع الإسرائيليون الثلاثة خلفه .. وانطلقت رصاصاتهم نحوه ..

وقفز (نسيم) يحتمى ببعض قوائم المعروضات ، التى أصابتها الرصاصات ، فراحت تتطاير من حوله ، كما لو كانت بعض القنابل المحدودة ، و(فيليب) يهتف :

ـ حاصروه .. إنه يحاول بلوغ الباب الخلفى .

قفز (درو) عبر قائم مرتفع ، وألقى جسده أرضًا ، وهو يطلق رصاصاته ، التى اخترقت الجدار ، على قيد سنتيمترات قليلة من (نسيم) ، قبل أن يدفع هذا الأخير جسده بكل قوته ، ويثب داخل مخزن المؤخرة ، فى نفس اللحظة التى تعالى فيها دوى أبواق سيارة شرطة ، تقترب من المكان ..

وهتف (مورو) :

ـ لقد نجح فى بلوغ المخزن .

هتف (فيليب) فى عصبية :

ـ المخزن له باب واحد ، يقود إلى الشارع الجانبى ، وهو شارع مغلق من أحد جانبيه ، وله مخرج واحد ، إلى الشارع الرئيسى .. حاصروه أنتما هنا ، وسأمنعه أنا من الفرار بأى ثمن .

قالها ، وانطلق يعدو نحو الواجهة الزجاجية للمتجر ، وهو يلوِّح بمسدسه ، صارخًا فيمن تبقَّى من الروّاد :

ـ ابتعدوا أيها الأوغاد .. ابتعدوا .

تعالت صرخات الروّاد ، وتضاعف ذعرهم ، عندما تعالى من خلفهم دوى رصاصات أخرى ، اقترن بصوت زجاج الواجهة يتحطَّم وينهار ، قبل أن يثب (فيليب) عبره ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها سيارة الشرطة إلى المكان ، وقفز منها شرطيان ، صوَّبا إليه أسلحتهما ، وأحدهما يهتف فى صرامة :

ـ ألق مسدسك ، وإلا أطلقنا النار .

صاح بهما (فيليب) ، وهو يندفع نحو مدخل الشارع الجانبى :

ـ شرطة فيدرالية أيها الأحمقان .. إننا نطارد قاتلاً خطيرًا .. هيَا .. تعاونا معنا .

تردَّد الجنديان لحظة ، فصرخ غاضبًا :

ـ هل تشكان فى قولى ؟! فليكن .. هاكما شارتى .

ودفع يده فى جيب سترته ، وكأنما يهمّ بالتقاط شارته ،

إلا أنه لم يلبث أن أخرجها حاملة مسدسًا آخر ، انطلقت إحدى رصاصاته ، لتغوص فى قلب أحد رجلى الشرطة ، فى نفس الوقت الذى انطلقت فيه رصاصة من المسدس الأوَّل ، نسفت رأس الثانى ..

ولم ينتظر (فيليب) حتى سقوط الرجلين ، وإنما اندفع داخل الشارع الجانبى ، فى شراسة مخيفة ، ليظفر بفريسته الرئيسية ..

(نسيم) .

فى نفس الوقت ، كان رجل المخابرات المصرى قد وثب إلى المخزن ، وأغلق بابه خلفه فى إحكام ، ثم اندفع إلى الباب الخلفى ، محاولاً الفرار عبره ..

ولكن الباب الخلفى كان مغلقًا أيضًا ..

وبإحكام ..

وتلفَّت (نسيم) حوله فى توتر ، بحثًا عن أى شىء ، يمكن أن يعاونه على فتح أو تحطيم رتاج الباب الخلفى ..

ولكن (درو) و (مورو) كانا يبذلان جهدهما أيضًا ، لتحطيم رتاج باب المخزن ..

وفى نفس اللحظة ، التى وقع فيها بصر (نسيم) على بلطة الطوارئ ، داخل صندوقها الزجاجى ، أطلق (مورو) رصاصات مسدسه على الباب ..

واندفع (نسيم) بكل قوته نحو صندوق بلطة الطوارئ ..

وانطلقت رصاصات (فيليب) من الخارج ، تنسف رتاج الباب الخلفى ..

وعندما بلغ (نسيم) الصندوق ، كان الإسرائيليون الثلاثة يقتحمون المخزن ، من الأمام والخلف ، فى آن واحد ..

وهوى (نسيم) بقبضته العارية ، على واجهة الصندوق الزجاجية ..

واستدارت إليه فوهات المسدسات الإسرائيلية الثلاث ، فى سرعة مدهشة ..

وعندما بلغت سيارة الشرطة الثانية المكان ، سجّل راكباها دوى ثلاث رصاصات متتالية سريعة ، داخل مخزن المؤخرة للمتجر ..

وبعدها ساد صمت رهيب ..

صمت تفوح منه رائحة مخيفة ..

رائحة الموت .

★ ★ ★

[تابع الأحداث ، فى كتاب كوكتيل القادم بإذن الله]

حقيقة علمية

(مصر) تسبق (أمريكا)

إلى القرن الحادى والعشرين

هل أدهشك العنوان ؟!

لو أن هذا ما حدث ، فدعنى أكرّر لك هذه الحقيقة العلمية ، التى لا يجرؤ عالم واحد على مخالفتها أو تكذيبها ، حتى أشد المتحمسين للولايات المتحدة الأمريكية ..

نعم .. (مصر) ستدخل القرن الحادى والعشرين ، قبل الولايات المتحدة الأمريكية ..

صحيح أن معظمكم ، إن لم يكن كلكم ، ستستنكرون هذا القول بشدة ، وستؤكدون أن (أمريكا) ، بكل ما لديها من تقدُّم وتكنولوجيا ، ستسبقنا حتمًا إلى القرن الحادى والعشرين ، وخاصة المتأمركين منكم ، الذين يتصوَّرون أن أى شىء ، وكل شىء ، لا يمكن أن ينصلح وينضبط ، إلا إذا كان أمريكيًا ..

وهؤلاء المتأمركون يتصوَّرون أنه لا يمكن أن يصبح لهم شأن ، إلا إذا تشبَّهوا بالنمط الأمريكى ، فى حياتهم كلها ..

معذرة .. ليس فى حياتهم كلها ..

فى الجانب الفاسد منها فحسب ..

إنهم فقط يرتدون الأزياء الأمريكية (معظمها أزياء الشباب الضائع فى شوارع أمريكا) ، ويتهافتون على الأطعمة الأمريكية ، مثل الهوت دوج والهامبورجر ، على الرغم من أن الأمريكيين أنفسهم لايقبلون عليها إلا فى أيام إجازاتهم ..

وحتى الحديث ، لا بد أن يكون باللغة الإنجليزية ، وبلكنة أمريكية غربية ، مع المبالغة فى مخارج الكلمات والحروف ، لتأكيد أمريكيتهم العربية ، المتأصلة فى كفر (طقرمس) ..

أو على الأقل ، ينطقون معظم مصطلحاتهم بالإنجليزية ، حتى تبدو عليهم علامات التقدُّم والرقى ، وكأن التحدُّث بالعربية

نوع من (قلة القيمة) أو التخلُّف الحضارى ، على الرغم من أن العرب كانت وما زالت لهم حضاراتهم ، التى أشرقت على العالم ، من قبل حتى أن يولد (كولومبوس) نفسه ..

أما لهفة الهجرة إلى (أمريكا) فأمر آخر ..

الكل يحلم بهذا الأمل ، ويسعى إليه طوال الوقت ، وكأنما لم يعد هناك طريق للنجاح ، فى العالم كله ، سوى طريق الهجرة إلى (أمريكا) ..

والكل يتصوَّر أنه سيصل إلى هناك ، فيجد الرئيس الأمريكى شخصيًا فى انتظاره ، ليقبِّل يده ، ويشكره على أنه تنازل وتواضع ، وهاجر إلى (أمريكا) ، التى لم تكن لتحيا بدون مواهبه ..

وبعد هذا الاستقبال يأتى وزير المالية لزيارته ، وعيناه فى الأرض ، ليرجوه أن يقبل وظيفة مليونير بالانتداب ، لحين خلو درجة ..

ثم تنهال الدولارات وسبائك الذهب ، والفضة ، و ... ، و ...

ويستيقظ من حلمه ، ليجذب الغطاء على نصفه السفلى ، ويواجه الحقيقة ..

إنه سيهاجر إلى أرض جديدة ، ربما كانت أشبه بقفص ذهبى ، ولكنها ستركله بحذاء من الصلب ، لو لم يكافح ويعمل

ليل نهار ، حتى يجد لنفسه أربعة جدران ، وساندويتش هامبورجر ..

وهناك سيظل يحلم ، ويحلم ، ويحلم ..

ثم سيقبل الواقع ..

ويقبل ..

ويقبل ..

وعلى الرغم من هذا ، ففى أوّل إجازة له ، سيروى للجميع كيف أنه يعيش فى رفاهية مطلقة ، ويبعثر الأموال يمنة ويسارًا ، و ... ، و ...

ويزرع فى أعماق الآخرين الحلم ذاته ..

حلم الهجرة إلى (أمريكا) ..

وتحتشد الطوابير أمام السفارة الأمريكية ..

ويتمادى الناس أكثر وأكثر فى تقليد الأمريكيين ، حتى لنجد أحدهم مرتديًا قميصًا قصير الأكمام ، وعلى صدره كلمة إنجليزية كبيرة ، لا يدرى هو نفسه إنها كلمة (دونكى) ..

والمضحك أن الشباب الأمريكى لا يشبه قط تلك الصورة ، التى يتصوّرها شبابنا ، أو يحاول تقليدها ..

إنه شباب جاد للغاية ، يدرك جيّدًا أن الطموحات والأحلام وحدها لا تكفى ، وأن عليه أن يعمل ليل نهار ، بلا كلل أو ملل ، لتحقيق حلمه ..

شباب يكدّ ويكدح طوال الأسبوع ، ثم يخرج ليلهو ويمرح ، فى يومى الإجازة ..

تمامًا مثل شبابنا العظيم ، الذى يلهو ويمرح طوال الأسبوع ، ثم يكافئ نفسه باللهو والمرح فى الإجازة ..

وبعد هذا ، يجد فى نفسه القدرة .. أو بمعنى أدق (الصفاقة) الكافية ليحلم ..

ولكن كل هذه الأحلام لن تجدى ..

وكل الإحساس بالتفوّق الأمريكى لن يفيد ..

فعندما يحل عام ألفين وواحد ، وهو بداية القرن الحادى والعشرين ، وليس عام ألفين ، كما يتصوّر البعض ، ستكون (مصر) أسبق إليه من (أمريكا) ..

هل تدرون لماذا ؟!

لأن علم الجغرافيا ، وخطوط الطول والعرض تحتم هذا ..

فعلميًا وعمليًا ، نحن نسبق (أمريكا) بسبع ساعات كاملة فى التوقيت ..

وهذا يعنى أننا سنعبر إلى القرن الحادى والعشرين ، قبل الولايات المتحدة الأمريكية بسبع ساعات كاملة ..

سبع ساعات ، سنقضيها نحن فى القرن الحادى والعشرين ، فى حين تظل (أمريكا) خلالها فى القرن العشرين ..

هل تعلمونَ ما سأفعله أنا ، طوال تلك الساعات السبع ، إذا ما كتب لى اللهُ (سبحانه وتعالى) أن أحيا لأراها ؟!

سأخرج لسانى لكل الأمريكيين ..

وكل المتأمركين .

★ ★ ★

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب

المرأة مشكلة .... صنعها الرجل
(دراسة)
خذ أنوثتى .. وأعطنى حريتى

(خذ أنوثتى .. وأعطنى حريتى)

لعبة جديدة تلعبها البنات هذه الأيام ..

لعبة اسمها (الاسترجال) ..

ففى الماضى ، وحتى زمن قريب ، كانت البنت (أى بنت) تهتم اهتمامًا شديدًا بأنوثتها ، وتحرص على إبرازها ، فترتدى الجيب الواسع ، والبلوزات الحريرية ، وتحيط عنقها بإيشارب ملوَّن هفهاف ، وتضع فى قدميها حذاءً صغيرًا بكعب رفيع مرتفع ، وتضمّ إليها حقيبة صغيرة رقيقة ، ولا مانع من قفازين لاستكمال المظهر ..

ولكن كل هذا كان يحتم عليها أن تدفع ثمنًا غاليًا ..

ففى كل مرة ، تستعد فيها للخروج ، وتصبغ شفتيها بطلاء الشفاة ، كان أبوها يرمقها بنظرة شك صارمة غاضبة ، وأمها تستجوبها وتحاصرها بأسئلتها ، حول سبب خروجها ، ووجهتها ، وزمن عودتها المنتظر ..

وإذا ما وافقا على خروجها فى النهاية ، وهذا فى حالات نادرة للغاية ، فإنهما يبدآن فى حساب الوقت ، قبل حتى أن تغادر المنزل ، ويتساءل والدها فى حدة عن سبب تأخرها فى العودة ، وهى لم تفتح باب الخروج بعد ..

أما أمها ، فهى تنتظرها فى الشرفة ، مع مغيب الشمس ،

وتثور فى وجهها غاضبة ثائرة ، لو تأخرت خمس دقائق فحسب عن موعدها ..

وكان على فتاة الأمس أن تحتمل كل هذا ، فى سبيل المحافظة على أنوثتها ، ومظهرها ، وأناقتها ، وإيقاع الكعب الرفيع فى أثناء سيرها ..

ولقد أدركت فتاة اليوم أن الأمر لا يستحق كل هذا ..

ولأن فتاة اليوم أكثر ذكاءً من فتيات الأمس ، وجدت فتاة اليوم أن الشىء الوحيد ،الذى يحيطها بالشك والريبة ، والغضب ، والسخط ، هو أنوثتها ..

أو بمعنى أدق ، مظاهر أنوثتها ..

لذا ، فقد بدأت تلك اللعبة ..

وتخلّت عن كل مظاهر الأنوثة ..

لم تعد ترتدى تلك البلوزات الحريرية ، أو الجيب الواسع ..

بل لم تعد تميل لارتداء الفستان الذى يميِّز أنوثتها ..

لقد اتجهت لارتداء السراويل الأمريكية الشهيرة (البلوجينز) ، والأحذية الكبيرة ، ذات النعل الرفيع أو السميك ..

بل ولم تعد تهتم حتى بطلاء شفتيها أو زينتها ..

وحتى تكتمل جوانب اللعبة ، فقد راحت تتعامل ، وتتصرَّف ، وتتحدَّث كالفتيان ، بكل خشونتهم ، وفظاظتهم ..

واختلط الحابل بالنابل ..

لم تعد هناك انثى رقيقة ..

ولم يعد هناك ولد خشن ..
والطريف أن الأبوين قد ابتلعا الطعم ..
ووقعا فى الفخ ..
وصدَّقا الخدعة ..
ونجحت اللعبة ...
وأصبحت البنت تخرج من منزلها ، بهذا الزى الرجالى ، فيبتسم الأب ، ويفتل شاربه ، وهو يقول لأمها فى فخر :
ـ ابنتنا مثل الرجال .
وكأن هذه علامة فخر وزهو ..
ولأنهما يتصوران ، أو يصدِّقان أن ابنتهما مثل الرجال بالفعل ، فهما لا يشكّان فى أمرها ، وهى تخرج ، وتغيب ، وتتأخر ..
وأدركت فتاة اليوم أن لعبتها قد نجحت ..
وأن الخدعة قد اكتملت ..
وضحكت ساخرة فى أعماقها ..
فهى وحدها ، تدرك جيدًا أنها لم ، ولن تفقد أنوثتها أبدًا ..
فالأنوثة ليست مجرَّد شكل أو انطباع خارجى ..
الأنوثة مشاعر ، وأحاسيس ، وأفكار ، وعواطف ..
وهرمونات ..
فالأنثى ستظل أنثى ..
تحيا ..
وتميل ..

وتفكر ..
وتحب ..
وتعشق ..
سواء أكانت ترتدى فستانًا هفهافًا ، أو سروالاً من الخيش ..
كل ما حدث هو أنها قرَّرت المبادلة ..
أنوثتها مقابل حريتها ..
وهى لم تفعل هذا لأنها خبيثة وداهية وواعية ..
لقد فعلته لأنها مضطرة لهذا ..
المجتمع أجبرها على لعب دور ، لا يناسب طبيعتها ، لتحصل على ما يناسب عصرها ..
الحرية ..
فكل شىء حولها كان يؤكِّد أن القيود لم تعد صالحة لهذا الزمن ..
خروج المرأة للعمل ..
تحرُّرها ..
الحقوق التى صارت تتمتَّع بها ، اجتماعيًا ، واقتصاديًا ..
وحتى سياسيًا ..
ثورة الاتصالات ، التى بلغت ذروتها ، فى السنوات الخمس الأخيرة ، على نحو جعل العالم أشبه بقرية صغيرة ، ينتقل الخبر فيها من بيت إلى بيت ، فى سرعة البرق ..

كل هذا جعلها توازن بين أنوثتها وحريتها ..

ولأنها واثقة من أن أنوثتها لن تذهب أبدًا ، اختارات حريتها ..

وكانت المعادلة مناسبة للجميع ..

الولدان ..

وهى ..

وحتى الشبَّان ..

فافتقار البنت إلى مظاهر الأنوثة ، جعل الشاب يفقد إحساسه

بوجودها إلى حد ما ، مما أعفاه من محاولات الالتزام أو اختيار وانتقاء كلماته وعباراته ..

وبدأ الشاب يتحدَّث بحريته ، وكأنه يقف مع زميل ، وليس زميلة ..

وأصبح أسلوبه غليظًا خشنًا ، يفتقر إلى اللياقة والذوق ..

وأحيانًا إلى الأدب ..

ولأن وجه الفتاة لم يحمرّ حياءً ، أو يتخضَّب بحمرة الخجل ، عند هذه المرحلة ، فقد تمادى الشاب فى أسلوبه ..

واعتادت الفتاة التعامل مع هذا الأسلوب ..

ومع مرور الوقت ، لم يعد تخلّى البنت عن أنوثتها يقتصر على الشكل الخارجى ، وإنما امتدّ إلى المضمون أيضًا ..

اخشوشنت الفتاة ، وراحت أنوثتها تذوب وسط هذه الخشونة رويدًا رويدًا ..

أسلوب البنت أصبح أشبه بأسلوب الولد ..

حديثها ..

مصطلحاتها ..

وحتى دعاباتها ..

لقد أصبحت نسخة من الشاب ..

نسخة مشوَّهة مضحكة بالتأكيد ..

ولأن الشىء المستخدم ينمو ، والمهمل يضمر ، فقد غابت الأنوثة المهملة بالفعل ..

وبرزت الذكورة ..

راقب فتيات اليوم ، وستدرك ما أقصده بهذا ..

راقب أسلوب سيرهن ..

حديثهن ..

وحتى وقفتهن ..

كلها جافة ، خشنة ، شبه صارمة ..

حتى فى حفلاتهن ، لم يتخلين عن تقليد الذكور ..

مازلن يرتدين السراويل (البلوجينز) ، والسترات الخشنة ..

ولكن من حسن الحظ ، ومن رحمة الله (سبحانه وتعالى) بعبادة ، أن هذا الوباء لم يصب كل فتاة فى (مصر) ..

ما زالت هناك جبهة مضادة ..

جبهة اختارت أنوثتها ، وارتضت ببعض القيود على حريتها ..

وتلك الجبهة قليلة ضعيفة ..

ولكنها ملحوظة ..

فتيات مازلن .. فتيات ..

بعضهن من المحجبات ، اللاتى يتركن القوامة للرجال ، كرضوخ لتعاليم الدين ..

والبعض الآخر رفضن التخلى عن أنوثتهن بإرادتهن ..

وعقولهن ..

ورغبتهن ..

وباحترامهن لهذه الأنوثة وفخرهن بها ..

وهذا البعض الأخير هو الذى يواصل تلك المعركة القديمة ..

إنه يهتمّ بأنوثته ، وزينته ، وملبسه .

ويبدو دائمًا فى صورة الأنثى ..

وعلى أكمل وجه ..

لذا ، فأسرة الواحدة منهن تحيطها بالشك ، والقلق ، والحذر ..

أمها تحاصرها بأسئلتها ، كلما حاولت أو أرادت الخروج ..

والدها يرمقها بنظرات الشك والاهتمام ..

شقيقها يدرّب رجولته الوليدة بتهديدها وإنذارها ، والصراخ فى وجهها ..

ولكنها تحتمل كل هذا ..

تحتمله ، لأنها اتخذت قرارًا يخالف قرار الفئة الأولى ..

اتخذت شعارًا يقول : (خذوا حريتى ، واتركوا لى أنوثتى) ..

وهذه الفئة المناضلة ، التى تقاتل للاحتفاظ بأنوثتها ، هى التى ستتلقّى كل الضربات ، فى هذه المرحلة ..

وهى التى ستعانى تعنتات الأب والأخ ، والخطيب ، والزوج ..

ومع مرور الوقت ، سيصبح من المحتَّم أن تتحوَّل بدورها إلى مشكلة ..

مشكلة كبيرة ..

صنعها الرجل ..

★ ★ ★

وإلى اللقاء مع الفصل القادم بإذن الله

١ ـ تمـــــويل ..

« دكتور (حسن) .. »

انتفض جسد العالم الشاب ، عندما سمع اسمه يتردَّد ، على لسان سكرتيرة مكتب (فؤاد صالح) .. رجل الأعمال والملياردير الشهير ، وانتزعه صوتها من أفكاره العديدة ، التى شرد فيها لساعة كاملة ، وهو يجلس فى انتظار هذه المقابلة ، التى بنى عليها العديد من آماله وأحلامه ، منذ ما يقرب من عام كامل ، فهبَّ واقفًا فى احترام مثير للشفقة ، وهو يعدِّل منظاره الطبى فوق أنفه ، قائلاً فى ارتباك :

ـ نـ .. نعم .

ابتسمت السكرتيرة الحسناء ابتسامة هادئة ، تحمل لمسة من الخبث ، توحى بأنها قد اعتادت هذا التوتر المضطرب ، من كل من يلتقى بمخدومها الشهير لأوَّل مرة ، وأشارت بيدها ، قائلة :

ـ (فؤاد) بك سيلتقى بك الآن .

هتف بلهفة ، لم يستطع كتمانها :

ـ حقًا ؟!

اتسعت ابتسامة السكرتيرة ، وهى تقول :

ـ نعم .. حقًا يا دكتور (حسن) ..

لم ينتبه إلى رنة السخرية فى صوتها ، وهو يندفع نحو باب مكتب (فؤاد) بك ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى ارتبك ، واضطرب ، والتفت إليها ، متمتمًا :

ـ الآن ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت بكل ما أمكنها من هدوء وتهذيب ، وهى تقاوم رغبتها فى الضحك :

ـ نعم .. الآن يا دكتور (حسن) .

تردَّد الشاب لحظة ، قبل أن يطرق الباب فى حذر مرتبك ، فتقدَّمت السكرتيرة تدفع الباب ، قائلة :

ـ إنه فى انتظارك يا دكتور .

اتسعت عينا الدكتور (حسن) عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى المكتب الواسع الأنيق ، ذى الواجهة الزجاجية العريضة ، التى تطلّ على النيل مباشرة ، وفى الرجل البالغ الفخامة والأناقة والوقار ، الذى نهض من خلف مكتب من الأبنوس الأسود(*) ، المطعَّم بقطع من النحاس الأصفر ، وهو يبتسم فى ترحاب ، قائلاً :

(*) الأبنوس : خشب أسود اللون ، وهو الخشب الصميمى لعدد من الأشجار الاستوائية ، التى تنتمى إلى فصيلة (ديو سبيروس) ، وهو خشب صلد ممتاز الصقل ، يستعمل فى صناعة بعض قطع الأثاث الفاخر ، ومفاتيح البيانو ، ولقد تحدَّث عنه عدد من قدامى المؤرخين ، مثل : (هيرودوت) و(فرجيل) ، وهو غالى الثمن إلى حد كبير ، حتى إن القلم المصنوع من خشب (الأبنوس) كان يعد هدية قيمة ، حتى زمن قريب .

ـ تفضَّل يا دكتور (حسن) .. مرحبًا بك فى مكتبى .

ارتبك الشاب ، وهو يدلف إلى المكان ، وانتفض جسده مرة أخرى ، عندما أغلقت السكرتيرة الباب خلفه ، فتمتم :

ـ أشكرك يا (فؤاد) بك .. أشكرك .

صافحه الملياردير فى ترحاب ، ودعاه إلى الجلوس ، ثم اتخذ المقعد المقابل له ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ تُرى ما المشروع الكبير ، الذى طلبت مقابلتى لعرضه يا دكتور (حسن) .

كان من الواضح أن الرجل لا يميل إلى إضاعة الوقت ، وأنه يرغب دائمًا فى طرق الحديد وهو ساخن ، مما أربك العالم الشاب أكثر ، وجعله يتململ على مقعده ، ويعدِّل منظاره فوق أنفه ثانية ، قبل أن يقول :

ـ الواقع أنها فكرة جديدة ، لم يطرقها أحد بشكل عملى من قبل ، ولكن لو أن ..

قاطعه الملياردير فى شىء من الضجر :

ـ وما هى هذه الفكرة يا دكتور (حسن) ؟!

ازدرد الشاب لعابه فى صعوبة ، وأشار بسبَّابته ، مجيبًا فى توتر أكثر :

ـ قل لى يا (فؤاد) بك : ما الذى يمكن أن يفعله زوجان لا ينجبان ، للحصول على ابن ، تكتمل به سعادتهما ؟!

بدا السؤال سخيفًا للملياردير ، ولكنه تمالك نفسه ، وهو يجيب :

ـ يمكنهما أن يتبنيا طفلاً .

هزَّ الدكتور (حسن) رأسه نفيًا فى قوة ، وهو يقول :

ـ لا يوجد أفضل من أن تربى طفلاً من صلبك .

تطلَّع إليه الملياردير لحظة فى شك حذر ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ أعتقد أنهم يتحدثون منذ عام أو عامين ، عما يطلق عليه اسم (أطفال الأنابيب) .. إنها عملية تلقيح اصطناعية تقريبًا ..

اتسعت ابتسامة الدكتور (حسن) ، واكتسب صوته شيئًا من الثقة ، وهو يقول :

ـ عملية التلقيح الاصطناعية ، التى يطلقون عليها اسم (أطفال الأنابيب) ، مجرَّد عملية تخصيب خارج الرحم ، باستخدام حيوان منوى وبويضة ، من الأب والأم ، وهى تستخدم مع أولئك الذين يعانون عدم استقرار الحمل ، أو بعض التشوهات الخلقية ، التى تمنع حدوث الحمل الطبيعى ، وهم يعتبرون هذا إنجازًا الآن ، فى أواخر السبعينات ، ولن يمضى وقت طويل ، حتى تجد مراكز (أطفال الأنابيب) هذه منتشرة فى (مصر) كلها ، قبل أن نبلغ منتصف الثمانينات على الأرجح .

ثم مال إلى الأمام ، مستطردًا :

ـ ولكن ليس هذا ما أقصده .

وعاد يتراجع ، مكملاً ، وقد اكتسب المزيد من الثقة :

ـ إننى أقصد أمرًا أكثر تقدمًا .

ألقى الملياردير نظرة على ساعته ، وكأنه يشير إلى ضيق وقته ، قبل أن يقول فى ضجر واضح :

ـ ما هو مشروعك بالضبط يا دكتور (حسن) ؟!

هتف الدكتور (حسن) ، فى حماس مباغت ، أدهش الملياردير بشدة :

ـ قنبلة فى هذا العالم .. فرصة ذهبية للذين لا يمتلكون القدرة على الإنجاب .. وما أعنيه هنا هو غير القادرين تمامًا ، أو بمعنى أدق أولئك الذين تثبت كل فحوصهم أنه ليست لديهم حيوانات منوية على الإطلاق .

وعلى قدر دهشته ، وجد الملياردير نفسه يسأل فى فضول :

ـ وكيف يمكن لمثل هؤلاء أن ينجبوا ؟!

أجابه فى حماس متضاعف :

ـ هذه هى العبقرية .

ثم هبَّ من مقعده ، وقد زايله كل ارتباكه ، وحلَّ محلّه حماس وثقة لا مثيل لهما ، وراح يتحرّك فى المكتب الواسع ، متابعًا ، وهو يلوّح بذراعيه كليهما :

ـ منذ فترة قليلة ، قرأت مقالاً فى مجلة (أتلانتيك) ، بقلم (جيمس واطسون) ، الحائز على جائزة (نوبل) فى العلوم ؛ بسبب أبحاثه المهمة حول بنية الوحدة الأساسية لكل كائن حى ،

والمعروفة باسم (دى . إن . إيه) (D.N.A)(*) وفى مقاله هذا ، قال (واطسن) إن التطورات العلمية المدهشة ، تمهّد الطريق بسرعة إلى تحقيق ذلك الهدف ، الذى ظلّ طويلاً مجرّد حلم أو خيال يراود العلماء ، دون أدنى أمل فى تحويله إلى حقيقة(**) .

والتفت إلى الملياردير ، مستطردًا فى حماس شديد :

ـ الاستنساخ .

ردّد الملياردير فى دهشة :

ـ الاستنساخ ؟! ما الذى تعنيه هذه الكلمة بالضبط ؟!

أجابه الدكتور (حسن) ، ملوّحًا بذراعيه :

ـ ما يدل عليه منطوقها بالضبط يا (فؤاد) بك .. الاستنساخ هو صنع نسخة مماثلة تمامًا لشىء ما ، وفى حالتنا هذه ستكون هذه النسخة عبارة عن كائن جديد .. إنسان آخر ، مماثل تمامًا للشخص ، الذى تم صنع النسخة منه .

حدّق الملياردير فى وجهه بذهول ، قبل أن يهبَّ من مقعده ، ويحتقن وجهه فى شدة ، وهو يهتف :

(★) D.N.A : حمض (الداى أوكسى رايبو نيو كليك) ، (Deoxyribohu clic Acid) ، بروتين شديد التعقيد ، يوجد فى نواة الخلية ، وهو الذى يحمل الصفات الوراثية ، من جيل إلى جيل ، ومن خلية إلى أخرى ، ولا يمكن أن تنشأ الحياة أو تستقر (علميًا) بدون وجود هذا الحامض ، فهو المادة الكيماوية الأولى ، التى تكوّن أحياء جديدة ، وهو موجود فى كل خلية حية ، باستثناء كرات الدم الحمراء عديمة الأنوية .

(★★) المقال وكاتبه حقيقة .

ـ دكتور (حسن) .. هل أتيت هنا لتسخر منى ؟!

اتسعت عينا العالم الشاب ، وهو يقول فى دهشة :

ـ أسخر منك ؟! وكيف أسخر منك يا (فؤاد) بك ، بعد أن سعيت طوال شهر كامل لمقابلتك ، و ...

قاطعه الملياردير فى غضب :

ـ حديثك هذا هو السخرية بعينها .. ليس هذا فحسب ، وإنما هو نوع من الكفر أيضًا .

تراجع الدكتور (حسن) كالمصعوق ، هاتفًا:

ـ الكفر ؟! رويدك يا (فؤاد) بك .. إننى مؤمن بالله (سبحانه وتعالى) مثلك تمامًا .

صاح به الملياردير محنقًا :

ـ وكيف لرجل يؤمن بالله (عزَّ وجلَّ) أن يفكر مجرَّد التفكير ، فى خلق إنسان آخر ؟!

صرخ الدكتور (حسن) ملتاعًا :

ـ خلق ماذا ؟! مهلاً يا (فؤاد) بك .. الخلق صفة يختصَّ بها الخالق (عزَّ وجلَّ) ؛ فهو وحده (سبحانه) يقول للشىء : كن فيكون ، ويخلق كل شىء من العدم ، أما أنا فكل ما أتحدَّث عنه هو العلم .. فقط العلم .

صاح (فؤاد) ، وهو يعود إلى مكتبه فى حنق :

ـ أى علم هذا ، الذى يسعى لاستنساخ بشرى ؟! لماذا لا نترك الأمر لله (سبحانه وتعالى) ، ليدير كل شىء ، فيهب

لمن يشاء إناثًا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، ويجعل من يشاء عقيمًا بإذنه تعالى(*) ؟!

أجابه الدكتور (حسن) فى توتر :

ـ وما العيب فى أن يسعى الإنسان لتحقيق ما يصبو إليه ؟! الله (سبحانه وتعالى) خلق الداء والدواء ، ولم يعترض أحد قط على لجوء الإنسان للدواء ، طلبًا للشفاء .. بل إن عملية زرع الأعضاء نفسها لم تواجه بهذا الاعتراض .. أنت نفسك ، لو شعرت بالتهاب الزائدة الدودية ستسعى لإجراء عملية جراحية لاستئصالها ، ولن تعترض بحجة أن نترك كل شىء لله (عزَّ وجلَّ) يديره كما يشاء ؛ لأن الله أمرنا ، من خلال رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، أن نعقلها ثم نتوكَّل ، أى أن نبذل كل ما بوسعنا أوَّلاً ، ثم نترك الباقى لله (سبحانه وتعالى) .. والعجز عن الإنجاب مرض كغيره من الأمراض ، ومن حق كل شخص أن يسعى للشفاء منه ، بأية وسيلة كانت .

استقرَّ الملياردير خلف مكتبه ، وحدجه بنظرة ساخطة صارمة ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ مشروعك مرفوض يا دكتور (حسن) .

(*) بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثًا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ، ويجعل من يشاء عقيمًا ، إنه عليم قدير ﴾ صدق الله العظيم .

الآيات ٤٨ ـ ٥٠ من سورة الشورى .

امتقع وجه العالم الشاب ، وتلاشت نصف ثقته على الأقل ، وهو يقول :

ـ اسمعنى جيدًا يا (فؤاد) بك ، وحاول أن تعيد التفكير فى الأمر .. إن ما أعرضه عليك ليس كفرًا أو خلقًا كما تتصور .. إنه نفس ما يحدث بالنسبة لمشاريع (أطفال الأنابيب) هذه .. الفارق الوحيد هو أننا لا نحتاج إلى خلية منوية لإحداث الإخصاب .. إننا نحتاج إلى خلية حية .. أية خلية من جسم الإنسان ، باستثناء خلاياه الدموية .. أية خلية تحوى مادته الأساسية (D.N.A) ، وبعدها سنقوم بتدمير نواة البويضة ، بالأشعة فوق البنفسجية ، ونحقن داخلها المادة الأساسية للخلية البشرية ، التى تحمل صبغياتها كاملة .. ثلاث وعشرون زوجًا من الصبغيات(*) ، تحتويها البويضة ، بكل ما فيها من جينات وصفات ، تنتمى كلها إلى طرف واحد من الطرفين .. ذلك الطرف ، الذى حصلنا منه على الخلية الحية .. هل تعلم ما الذى يمكن أن يؤدى إليه هذا ؟! كائن جديد ، يتماثل تمامًا مع الكائن الأول ، فى كل سماته وصفاته ، ولا يحوى صفة واحدة ، سائدة أو متنحية من الطرف الآخر(**) .

(★) الصبغيات (الكروموسومات) : الكروموسوم جسم خيطى الشكل ، يوجد داخل النواة ، فى جميع خلايا النبات والحيوان ، وعادة ما يكون واضحًا عندما تكون الخلية فى حالة انقسام (الانقسام الفتيلى) ، ويوجد فى أزواج ، وتحتوى الكروموسومات على الجينات ، التى تحدد الصفات الوراثية لكل كائن حى ، وفى الإنسان يوجد ٢٣ زوجًا من الكروموسومات .

(★★) يطلق على هذه العملية اسم (التزاوج اللاجنسى) .
(Non Sexual reproduction) .

ثم تراجع ، مستطردًا فى توتر زائد .

ـ ألم تحلم بهذا أبدًا ؟! ألم تفكر يومًا فى انجاب طفل ، هو نسخة طبق الأصل منك ، ليرث ثروتك ، ويدير كل هذه المشاريع العملاقة ؟!

أجابه (فؤاد) فى صرامة :

ـ كلا .. لم أفكر فى هذا قط ؛ لأن لدى بالفعل ابن مثالى (حماه الله) .

قال الدكتور (حسن) فى توتر بالغ ، أقرب إلى الضراعة :

ـ ولكنه لا يشبهك تمام الشبه .. ليس نسخة طبق الأصل منك ، وهنا الفارق .

صاح (فؤاد) فى حنق :

ـ ومن يحتاج إلى نسخة طبق الأصل من نفسه ؟! أية متعة فى هذا ؟! المرء السوى يحتاج إلى ابن له صفات وسمات جديدة ، ويأتى حاملًا معه الأمل فى مستقبل أفضل .

لوّح الدكتور (حسن) بسبّابته ، قائلاً :

ـ ربما كان هذا رأيك الشخصى ، ولكنه ليس رأى باقى الأثرياء ورجال السلطة والقوة .. كل زعيم فى العالم سيرى فى هذا امتدادًا خرافيًا له .. وسيلة مدهشة لضمان الخلود .

هتف (فؤاد) بدهشة مستنكرة :

ـ الخلود ؟!

ثم عاد حاجباه ينعقدان فى غضب صارم ، وهو يكرّر عبارته الأولى :

ـ مشروعك مرفوض يا دكتور (حسن) .

وضغط زر استدعاء سكرتيرته ، مستطردًا فى حزم :

ـ وأعتقد أن وقت المقابلة أيضًا قد انتهى .

عاد وجه العالم الشاب يمتقع بشدة ، واضطربت الكلمات على لسانه ، وهو يعدّل منظاره الطبى فوق أنفه بعصبية ، قائلاً :

ـ لا تتعجّل يا (فؤاد) بك .. فكّر فى الأرباح الطائلة لاستثمار كهذا .. عديدون على استعداد لدفع الملايين ، فى سبيل الحصول على نسخة بشرية .. إننا نسبق العصر بخطوتين على الأقل ، عندما نبدأ هذا الآن .

دخلت السكرتيرة الحجرة ، فى هذه اللحظة ، وبدت عليها دهشة منزعجة ، عندما رأت (فؤاد) يهبّ من خلف مكتبه ، ويلوّح بسبابته فى غضب ، هاتفًا :

ـ نسبق العصر ؟! نسبقه إلى أين ؟! أإلى الجحيم بأفكارك الحمقاء الملحدة هذه ؟

صاح الدكتور (حسن) فى غضب :

ـ أفكار حمقاء ملحدة ؟! إنه العلم يا رجل .. العلم .

أمسكت السكرتيرة يده ، قائلة فى قلق :

ـ دكتور (حسن) .. اسمح لى .

ضرب يدها بعيدًا فى عنف ، وهو يواصل محتدًا :

ـ الأغبياء فقط من يعترضون سبيل العلم والتقدّم ؛ لأن قطار العلم سيدهسهم ويسحقهم ، ويمضى فى طريقه ، دون أن يبالى بهم ، أو ينتبه حتى لوجودهم .

تراجعت السكرتيرة فى هلع ، وراحت تصرخ منادية رجال أمن المؤسسة ، فى حين بدا (فؤاد) شديد الغضب ، وهو يصرخ :

ـ أخرجوا هذا المجنون الكافر من مكتبى .. ألقوه خارجًا .

صاح الدكتور (حسن) فى ثورة :

ـ هذا المجنون الكافر سبق زمانه بعشر سنوات على الأقل .. أنا الوحيد فى العالم كله ، الذى يمكنه استنساخ كائن بشرى بنجاح .. كل ما كان ينقصنى هو التمويل ، ولقد أتيت لأضع

هذه الفرصة الذهبية بين يديك ، ولكنك ركلتها بكل جهلك وغرورك وكبريائك الزائف .

صرخ (فؤاد) :

ـ أخرجوه .. أخرجوه قبل أن ...

لم تكتمل صرخته ، مع انقضاض رجال أمن المؤسسة على الدكتور (حسن) ، الذى راح يقاومهم فى استماته ، وهو يطلق صيحات احتجاج ثائرة ، فى حين اندفعت السكرتيرة نحو (فؤاد) ، هاتفة فى جزع :

ـ (فؤاد) بك .. أأنت بخير يا (فؤاد) بك ؟!

كانت على حق فى جزعها ، فالرجل كان يلهث بقوة ، ويلتقط أنفاسه فى صعوبة ، وجسده كله يرتجف من فرط الانفعال ، وهو يجيبها بصوت مختنق :

ـ ذلك الكافر .. الغبى ..

اندفع إلى الحجرة شقيقه (سمير) ، وهو يهتف مذعورًا :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا أصاب (فؤاد) ؟!

أشارت إليه السكرتيرة بيدها فى توتر ، وهمّت بقول شىء ما ، لولا أن قال (فؤاد) فى حدّة ، وبصوته المختنق اللاهث :

ـ أنا بخير .. اطمئنوا .

سأله شقيقه فى قلق بالغ :

ـ ماذ أصابك ؟!

أجابته السكرتيرة هذه المرة :

ـ ذلك الطبيب ، الذى التقى به هنا ، أثار أعصابه واستفزّه بشدة .

سألها شقيقه فى دهشة :

ـ ولماذا ؟!

اندفع (فؤاد) يجيب فى حدة :

ـ ذلك المجنون أتى يعرض علىَّ مشروع إنتاج إنسان .

خُيِّل لـ (سمير) أنه لم يسمع الكلمة أو يستوعبها جيدًا ، فتساءل مندهشًا :

ـ إنتاج ماذا ؟!

أجابه (فؤاد) ، وهو يلوّح بيده فى حنق :

ـ إنتاج إنسان .. إنه يدّعى قدرته على استنساخ أى بشرى ، بوسائل تكنولوجية حديثة ، ويطلب منى تمويل هذا المشروع الكافر .

هتف شقيقه مذعورًا :

ـ أعوذ باللّه العلى القدير .

أما السكرتيرة ، فقد تمتمت :

ـ إنه مجنون حتمًا .

قال (فؤاد) فى حدة :

ـ لو كان الأمر بيدى ، لألقيته فى مستشفى المجانين .

تناهى إلى مسامعهم عندئذ صوت هادئ ، يتساءل :

ـ من هذا الذى ستلقونه فى مستشفى المجانين ؟!

التفت الجميع فى آن واحد إلى مصدر الصوت ، وتهلّلت أسارير الملياردير ، وعادت الدماء إلى وجهه ، وكأنما أزال الصوت كل ما كان يملأ نفسه من انفعالات فى لحظة واحدة ، وهو يهتف :

ـ (عماد) .. حمدًا لله على سلامتك يا ولدى .

وارتسمت ابتسامة واسعة على شفتى العم ، فى حين خفق قلب السكرتيرة ، وهى تتمتم فى شىء من اللهفة والحياء :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (عماد) بك .

وفى خطوات هادئة رصينة ، وبابتسامة لا يمكن إلا أن تأسر قلبك ، من اللحظة الأولى ، دلف (عماد) ، ابن (فؤاد صالح) الوحيد إلى حجرة مكتب والده الواسعة الأنيقة ، وهو يتساءل بصوت رجولى عذب :

ـ أشكركم ، ولكننى لم أعلم بعد ، من هذا الذى ستلقونه فى مستشفى المجانين .

كان شابًا فى الخامسة والعشرين من عمره ، بهى الطلعة ، وسيم الملامح ، رياضى القوام ، أنيق الملبس ، باسم الثغر ، يهفو القلب لرؤيته ، على نحو جعل والده يهبّ من مقعده ، ويحتويه بين ذراعيه ، وهو يربّت على ظهره ، قائلاً بكل عاطفة الأبوة فى أعماقه :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا (عماد) .. لا تقلق نفسك بشأن ما حدث يا ولدى .. إنه شاب مجنون ، جاء يعرض علينا مشروعًا أحمق ، فطردته من هنا شر طردة .

بدا التأثُّر على وجه (عماد) ، وهو يقول :

ـ ولماذا لم تكتف بصرفه من هنا فحسب .

ابتسمت السكرتيرة فى حنان ، وقد اعتادت ردود أفعاله الرقيقة ، وحساسيته المرهفة ، وغمغم العم بابتسامة كبيرة :

ـ هذا هو (عماد) الذى نعرفه :

أما والده ، فقد ربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ صدقنى يا بنى .. لقد حاولنا .

ثم استعاد ابتسامته ، وهو يسأله فى اهتمام :

ـ ولكن دعك من هذا الآن ، وأخبرنى : ما أخبار صفقة الزوارق .

أجابه (عماد) فى حماس :

ـ سارت على خير ما يرام يا أبى .. أصحاب المصنع فى (إيطاليا) اندهشوا لإصرارنا على إتمام الصفقة معهم ، وتساءلوا : هل يسمح المناخ الاشتراكى فى (مصر) بتسويق زوارق صيد فاخرة كهذه ؟! ولكننى شرحت لهم كيف أن الأمور تتغيَّر بسرعة ، منذ انتهت الحرب ، وبدأ الرئيس (السادات) مرحلة الانفتاح الاقتصادى ، وأنه لن يمضى وقت طويل ، حتى نتحوَّل إلى الاقتصاد الحر ، مع بداية الثمانينات على الأرجح ، وستنمو رءوس الأموال كتطوّر طبيعى ، وتنشأ فئة جديدة من الأثرياء ، الذين سيقبلون على شراء هذه الزوارق .

سأله والده فى لهفة :

ـ وكيف كان حديثك معهم .. أريد معرفة كل التفاصيل .

أجابه (عماد) بابتسامة كبيرة :

ـ سأخبرك بكل التفاصيل يا أبى .

ثم ألقى نظرة على ساعته ، قبل أن يستدرك فى لهجة مهذبة :

ـ ولكن اسمح لى بأداء صلاة الظهر أوّلاً .

تمتم العم :

ـ بارك الله فيك يا ولدى .

وأسرعت السكرتيرة تغادر المكان ، لتفسح له مجال الخشوع للصلاة ، فى حين تطلّع إليه والده فى حب وزهو وإعجاب ، وهو يقول :

ـ يا للعالم المجنون ؟! من ذا الذى يسعى لإنتاج نسخة منه ، ولديه ابن رائع كهذا .

قالها ، وكل ذرة فى كيانه لا تحوى سوى صورة واحدة .. صورة ابنه الوحيد ..

(عماد) .

★ ★ ★

٢ ـ الابـــن ..

لم تكد دينا تلمح سيارة (عماد) ، وهى تتوقّف أمام النادى ، حتى هتفت فى سعادة ، وهى تصفق بكفيها كالأطفال :

ـ (عماد) وصل .

ألقت هتافها ، وقفزت من مقعدها ؛ لتعدو نحو مدخل النادى لاستقباله ، ولكن والدتها أمسكت يدها فى قوة ، وهى تقول فى صرامة :

ـ بنت .. تماسكى وتمالكى نفسك .. لا داعى لهذه اللهفة المفضوحة .

سألتها ابنتها فى دهشة :

ـ لماذا يا أمى ؟!

أجابتها أمها :

ـ (عماد) سيتصوّر أنك متلهّفة للقائه .

ضحكت قائلة :

ـ ولماذا يتصوّر ؟! إنها الحقيقة .. أنا فى غاية الشوق للقائه .

هتفت أمها مذعورة :

ـ بنت .

أزاحت (دينا) يد أمها فى رفق ، وهى تهمس :

ـ أمى .. إننى لم أره منذ أسبوعين كاملين .. ألا تقدرين هذا ؟!

ثم غمزت بعينها ، مستطردة :

ـ ثم إن (عماد) خطيبى .. رسميًا .

زوت الأم ما بين حاجبيها فى اعتراض ، وابنتها تعدو لاستقبال (عماد) ، عند بوّابة النادى ، فابتسم زوجها ، وغمغم ، وهو يتظاهر بقراءة الصحيفة :

ـ جميل هو الحب .. أليس كذلك ؟!

التفتت إليه الأم فى غضب ، وهى تقول :

ـ ابنتك لم ترث الحماقة من بعيد .

طوى الجريدة ، وهو يقول بنفس الابتسامة ، وكأنما اعتاد عنف أسلوبها وسلاطة لسانها الدائمة :

ـ أية حماقة فى هذا ؟! (عماد) مسافر خارج البلاد منذ أسبوعين كاملين ، وهو خطيبها رسميًا ، وسيتزوجان بإذن الله فى نهاية الشهر ، فماذا يمنع إظهار لهفتها عليه .

قالت فى حدة :

ـ أنت لا تعرف شباب هذه الأيام .. لو أبدت الفتاة أى ميل واضح نحوه ، تعالى عليها وتغطرس ، وعاملها كالجارية .

تطلّع إليها بنظرة عتاب ، وهو يقول :

ـ وهل يبدو لك (عماد) كشباب هذه الأيام ؟!

ورفع رأسه ليتجاوزها بنظرة إلى بوّابة النادى ، حيث التقى

(عماد) و(دينا) فى لهفة ، وتعانقت أيديهما فى حب ودفء ، وتابع :

ـ إنه شاب يتمنى كل أب أن ينجب مثله .. مهذّب ، مثقف ، متديّن ، متعلّم .. ينتمى لعائلة بالغة العراقة والثراء .. لا يمكنك أن تتصوّرى كم تمنيت أن يكون لى ابن مثله ، منذ رأيته لأوّل مرة .. كان فى الخامسة عشرة من عمره ، ويبدو كرجل ناضج رصين .

ثم تنهّد ، مستطردًا فى ارتياح :

ـ ولقد منحنى الله إياه كزوج لابنتى الوحيدة .. حمدًا لله رب العالمين .

التفتت إليه زوجته فى حدة ، قائلة :

ـ أتعايرنى يا رجل ؛ لأننى لم أنجب لك ولدًا ؟!

هتف ضاحكًا :

ـ رباه ! سنبدأ المناورات المعتادة !

ثم هب واقفًا ، ولوّح بيده ، مستطردًا :

ـ أهلاً يا (عماد) .. حمدًا لله على السلامة يا ولدى .

حيّاه (عماد) فى حرارة ، ثم مال على أم (دينا) بابتسامة عذبة ، قائلاً :

ـ كيف حالك يا أمى ؟! اشتقت لحنانك كثيرًا هذه المرة .

نطقها بلهجة دافئة ، جعلت المرأة تهتف فى حرارة وحماس :

ـ ليس بقدر ما أوحشتنا أنت يا ابنى .. هيا .. اجلس .. اجلس وقصّ علينا كل ما فعلته فى رحلتك .

جلس (عماد) على المقعد المجاور لها ، و(دينا) تهتف مداعبة :

ـ كم أشعر بالغيرة ، كلما ناداك (عماد) بلقب (أمى) هذا ، فأنت تمنحينه ضعف ما تمنحيننى إياه من الحنان حينذاك .

بدت أمها حنونة للغاية ، على نحو يفوق المعتاد ، وهى تجيب بابتسامة كبيرة :

ـ هكذا (عماد) دائمًا .. لا يمكنك أبدًا مقاومته .

هتفت (دينا) :

ـ آه .. سأشعر بالغيرة .

قهقه والدها ضاحكًا وهو يقول :

ـ هذا حقك .

شاركهم (عماد) بابتسامة مرحة رصينة ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

ـ لا يمكنك أن تتصوّرى كم يسعدنى دائمًا أن أخاطبك بهذا اللقب ، فلم تتح لى الفرصة أبدًا لاستخدامه مع أمى الحقيقية .

كانت عبارته الأخيرة تحمل نبرة حزينة ، مسّت قلوب ثلاثتهم ، خاصة وهم يعلمون أن أمه (رحمها اللّه) قد ماتت فى أثناء ولادته ، وربّتت أم (دينا) على رأسه فى حنان ، هامسة :

ـ اعتبرنى أمك دائمًا .

تهلّلت أساريره ، وهو يقول :

ـ إننى أعتبرك كذلك بالفعل .

قاومت (دينا) دمعة تأثّر ، امتلأت بها عيناها، ثم هتفت ، محاولة تغيير دفة الحديث :

ـ ماذا دهاكم ؟ هل ستستولون على خطيبى ، الذى لم أره منذ أسبوعين ؟!

وجذبته من يده ، مستطردة فى حماس مرح :

ـ هيا لأريك ما صنعوه بحديقة النادى .

نهض معها فى سعادة واضحة ، وهو يقول لوالديها :

ـ معذرة .. إننا ..

قاطعه والدها بابتسامة كبيرة :

ـ لا بأس .. لا بأس .. يمكننا فهم هذا .

تابعتهما الأم فى حنان ، وهما يتباعدان متشابكى الأيدى ، ثم لم تلبث أن انتفضت ، وكأنها تستعيد شخصيتها الطبيعية ، قائلة فى صرامة :

ـ ولكن لا ينبغى أن تبدى البنت لهفتها عليه .

ارتفع حاجبا الأب لحظة فى دهشة ، ثم لم تلبث أن انفجرت من بين شفتيه ، على هيئة ضحكة مجلجلة ، وهو يدفن وجهه فى الصحيفة ، متحاشيًا مواجهة زوجته الغاضبة بلا مبرّر ..

أما (عماد) و(دينا) ، فلم يشعرا بما دار من حولهما ،

وهما يسيران جنبًا إلى جنب ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ..

كان الحب قد ملك شغاف قلبيهما ، حتى لم تعد بهما حاجة إلى الكلام ..

تلامس أصابعهما كان يكفيهما ، فى تلك اللحظة التى امتزجت فيها روحاهما ، وهامتا فى جنة من السعادة والدفء والحنان .. والحب ..

ومن المؤكد أن هذا المشهد الجميل قد جذب انتباه كل رواد النادى ، الذين تعلقت عيونهم به ، وراحت تتابعه فى انبهار وحسد ..

ولم تنطق (دينا) بأولى كلماتها ، إلا عندما وصلا إلى حديقة النادى ، فابتسمت فى خجل ، وهى تمتم :

ـ أوحشتنى .

همس بحنان دافق :

ـ أنت أوحشتنى أكثر .

لكزته بمرفقها فى دلال ، قائلة :

ـ لو أننى أوحشتك بحق لما غبت عنى كل هذا الوقت .

ابتسم هامسًا :

ـ كنت أحادثك هاتفيًا كل يوم .

هزّت كتفيها ، قائلة :

ـ هذا لا يكفينى .

ثم استندت إلى جدار قريب ، وهى تتطلّع إلى عينيه مباشرة ، هامسة :

ـ إياك أن تغيب عنى مرة أخرى .

مال نحوها ، مغمغمًا :

ـ عندما نتزوّج ، فى نهاية الشهر ، لن أسافر وحدى أبدًا .. ستصحبيننى فى كل رحلاتى .

تمتمت وصوتها ينخفض :

ـ لن أفارقك لحظة واحدة .

همس بكل حب الدنيا :

ـ سأعتبر هذا وعدًا .

قالت وصوتها يزداد انخفاضا :

ـ اعتبره وعدًا ، منذ هذه اللحظة ، ولن تسافر وحدك قط ، و ...

قاطعها فجأة :

ـ فيما عدا مرة واحدة .

انعقد حاجباها فى غضب طفولى ، وهى تقول :

ـ ولماذا هذا الاستثناء ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ لابد أن أتفقد فرع الشركة فى (الإسكندرية) ، لأننا نستعد لاستلام صفقة زوارق جديدة هناك ، بعد أسبوع واحد ..

مطّت شفتيها ، وضربت الأرض بقدمها ، قائلة :

ـ سأسافر بصحبتك .

ابتسم ، وداعب خصلة من شعرها ، متمتمًا :

ـ والدتك لن تسمح بهذا .

قالت فى عناد :

ـ سأسافر على الرغم منها .

بدا الهلع على وجهه ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ على الرغم منها ؟!

ثم استطرد فى صرامة :

ـ إياك أن تفكرى فى هذا الأمر .. السفر ضد رغبة والديك أمر مرفوض تمامًا .. طاعة الوالدين تعلو كل شىء .

ارتبكت ، وتخضّب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تقول :

ـ بالتأكيد يا (عماد) .. أنا لم أكن أقصد هذا فعليًا .

استعاد هدوءه وحنانه فى سرعة، وهو يبتسم قائلاً :

ـ أعلم هذا .

سألته فى دلال :

ـ ومتى ستسافر ؟!

أجابها مبتسمًا :

ـ يوم الأربعاء القادم .. سأقضى يومين فحسب ، وسأعود صباح الجمعة بإذن الله .

مطّت شفتيها كالأطفال ، مغمغمة :

ـ ستوحشنى للغاية حينذاك .

ابتسم أكثر ، وهو يداعب خصلة شعرها مرة أخرى ، هامسًا :

ـ احتملى هذا أسبوعًا آخر ، وبعدها سأصبح ملكك إلى الأبد .

هزّت كتفيها ، قائلة فى دلال :

ـ من يدرى ؟!

ولم تتصوّر لحظتها أن دلالها هذا كان أشبه بالنبوءة ..

فمن يدرى بالفعل ، ماذا يمكن أن يحدث ، بعد أسبوع كامل ؟!

من يدرى ؟!

★ ★ ★

« سأسافر اليوم إلى (الإسكندرية) .. »

ألقى (عماد) عبارته فى هدوء ، وهو يراجع ملف صفقة الزوارق الإيطالية ، فى مكتب والده ، الذى رفع عينيه عن أوراقه ، ليسأله فى اهتمام :

ـ متى تصل باخرة الشحن ؟!

أجابه فى سرعة واحترام :

ـ فجر الغد .. سأكون فى انتظارها بإذن اللّه (سبحانه وتعالى) .

تطلّع إليه والده بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ لا تسافر وحدك .. خذ الأسطى (سيِّد) معك .

بدت الدهشة على وجه (عماد) ، وهو يقول :

ـ الأسطى (سيِّد) ؟! ولماذا ؟! إنها ليست أوّل مرة أقود فيها السيارة وحدى إلى (الإسكندرية) !!

كان يشعر بحيرة كبيرة ؛ لقلق والده الواضح ، ولكن حيرته هذه لم تكن تقلّ عن حيرة (فؤاد) نفسه ، الذى تساءل فى أعماقه :

ـ تُرى لماذا أشعر بكل هذا القلق ؟! إنها بالفعل ليست أوّل مرة ، يسافر فيها وحده إلى (الإسكندرية) ! فماذا هناك إذن ؟!

دفعته الحيرة إلى الصمت بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ دعه يذهب معك هذه المرة .

لم يكن (عماد) يشعر بالارتياح لقرار والده ، الذى لم يجد له ما يبرِّره ، إلا أن طبيعته المهذَّبة جعلته يومئ برأسه إيجابًا ، ويقول فى طاعة :

ـ كما تأمر يا أبى .

تنهَّد (فؤاد) بارتياح ، وشعر وكأن حملاً ثقيلاً ينزاح عن كاهله ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ لا تتأخر هناك كثيرًا .. أنهِ الإجراءات ، وعد إلى هنا على الفور .. العمل يحتاج إليك .

تطلّع إليه (عماد) لحظة فى صمت ، قبل أن يتقدَّم نحوه ، ويربّت على كتفه فى حنان ، قائلاً :

ـ أنت كل الخير والبركة يا أبى .. أبقاك اللّه لنا .

ثم انحنى يطبع قبله على يد والده ، الذى قال فى ارتباك :

ـ لماذا فعلت هذا ؟!

اعتدل (عماد) بابتسامته العذبة ، قائلاً :

ـ لم أجد ما هو أفضل لأفعله ، تعبيرًا عن حبى واحترامى .

ارتفع حاجبا الأب ، فى تأثُّر وحنان ، وهو يقول :

ـ لا أحد من شباب هذه الأيام يفعل هذا .

هزَّ (عماد) كتفيه ، قائلا :

ـ وما شأنى بهم ؟!

ثم عاد يبتسم فى وجه والده ، مستطردًا :

ـ وهل لهم أب كأبى ؟!

ربَت (فؤاد) على خده ، متمتمًا :

ـ بارك الله فيك يا بنى .. بارك الله فيك .

ولكن حتى تمتمته الخافتة هذه ، عكست ما يختفى فى أعماقه من حيرة وقلق ..

نفس الحيرة والقلق ، اللذين لم يفارقا (عماد) لحظة واحدة ، حتى وهو يسير إلى جوار (دينا) ، فى حديقة النادى ، مما جعلها تقول غاضبة :

ـ هل أتيت لتودعنى أم لتنشغل بالتفكير فى صفقتك القادمة ؟!

التفت إليها فى دهشة ، قائلاً :

ـ بل أتيت لأقضى معك بعض الوقت ، قبل سفرى إلى (الإسكندرية) .

قالت محتدة :

ـ ولكنك لست معى على الإطلاق .. إنك شارد تمامًا .

ثم استطردت فى ضيق :

ـ أجبنى بصراحة .. هل تفكر فى العمل ؟!

شرد ببصره لحظة أخرى ، قبل أن يجيب فى خفوت :

ـ كلاً .. أفكر فى والدى .

قالت فى دهشة قلقة :

ـ والدك ؟! وماذا به .. آخر مرة رأيته فيها ، كان فى أتم صحة وعافية .

هزَّ رأسه ، قائلاً فى قلق :

ـ اليوم لم يكن كذلك .. كان شاردًا ، متوترًا ، حتى إننى أشعر بقلق حقيقى تجاهه .. أخشى أن يعجز عن مواجهة ضغط العمل وحده .

تطلَّعت إليه فى توتر ، ومدَّت يدها فى رفق ، تتحسَّس خده ، قائلة فى إشفاق :

ـ لا تقلق بشأن والدك .. إنه رجل قوى ، بنى نفسه بنفسه ، ويمكنه احتمال الكثير من المتاعب والضغوط .

وابتسمت فى حنان ، مستطردة :

ـ ثم إننى سأعمل على رعايته بنفسى .

أطلَّ امتنان واضح ، من عينيه العسليتين الدافئتين ، وهو يهمس :

ـ أعلم أنك ستفعلين .

تشابكت أصابعهما ، وتعانقت أكفهما ، وهما يتطلعان لبعضهما فى صمت ، قبل أن يميل على أذنها ، قائلاً :

ـ أأخبرك بسر ؟!

تخضب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تتمتم :

ـ أعرفه .

سألها هامسًا :

ـ وما هو ؟!

أجابته فى خفوت خجول :

ـ إنك تحبنى .

ضحك ، قائلاً :

ـ هذا ليس سرًا .. الجميع هنا يعلمون أننى غارق فى هواك .

ضحكت فى سعادة وخجل ، قائلة :

ـ ما السر الآخر إذن ؟!

أجابها فى اهتمام :

ـ لقد أخبرت أبى أننى سأعود صباح الجمعة ، ولكن الواقع أننى سأفاجئه بالعودة مساء الخميس .

سألته فى حيرة :

ـ ولماذا تفاجئه ؟!

ابتسم فى حنان ، مجيبًا :

ـ الخميس هو عيد مولده .

هتفت فى دهشة فرحة :

ـ حقًا ؟!

أجابها ، وقد بدت السعادة واضحة فى كلماته :

ـ إنه لم ينتبه إلى هذا ، ولكننى سأفاجئه بحفل غير متوقَّع مساء الخميس .

قالت فى حماس :

ـ اترك لى إعداد كل شىء .. سأبلغ الجميع ، وأضمن وجوده فى المنزل ، وسننتظرك جميعًا هناك .

تراجع فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ عظيم .. كنت أعلم أنه يمكننى الاعتماد عليك .

ثم استعاد ابتسامته ، متابعًا :

ـ وسأعمل على أن يحمل له مساء الخميس مفاجأة .. مفاجأة غير متوقَّعة .

وكان على حق فى عبارته ..

إلى حد لم يتصوَّره هو نفسه ..

مطلقًا ..

★ ★ ★

« مفاجأة ! »

هتفت (دينا) بالعبارة ، فى وجه الملياردير (فؤاد) ، الذى تراجع فى دهشة بالغة ، وهو يقول :

ـ (دينا) ؟! مرحبًا بك يا بنيتى .. أية مفاجأة تعنين ؟!

برز والداها من خلفها ، وبصحبتهما عدد من الأصدقاء والمعارف ، وكلهم يهتفون فى آن واحد :

ـ عيد ميلاد سعيد يا (فؤاد) بك .

ارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، وهو يفسح لهم الطريق ، مغمغمًا :

ـ عيد ميلاد ؟!

ثم لم يلبث أن هتف :

ـ رباه ! إنه عيد ميلادى بالفعل .. كيف علمتم هذا ؟!

طبعت (دينا) قبلة على وجنته ، قائلة :

ـ (عماد) أخبرنى ، وأنا أخبرت الآخرين .

لم يكد يسمع اسم ابنه ، حتى تهللت أساريره ، وهتف :

ـ (عماد) .. هل تذكر أيضًا ؟!

أجابته بابتسامة كبيرة :

ـ إنه لا ينساك أبدًا .

ابتهج كثيرًا لكلماتها ، وراح يتابع فى دهشة ذلك النشاط ، الذى شمل الجميع ، وهم يعلقون الزينات والبالونات ، ويعدُّون المائدة بالأطعمة والحلوى ، ورأى (دينا) تحمل كعكة عيد الميلاد ، التى اغرست فى منتصفها شمعة واحدة ، وهى تهتف ضاحكة :

ـ (عماد) أوصانى أن أضع شمعة واحدة ، حتى لا تفصح عن عمرك الحقيقى .

ضحك بدوره ، قائلاً :

ـ إننى لا أخشى هذا أبدًا .

ثم تحسَّس شعره الأشيب ، مكملاً :

ـ إنه حكم الزمن .

سألته فى لهفة ، وهى تضع الكعكة فى عناية ، فى منتصف المائدة تمامًا :

ـ هل تحدَّث إليك (عماد) مؤخرًا ؟!

أجابها فى سعادة :

ـ نعم .. لقد اتصل صباح اليوم ، وأخبرنى أن الشحنة قد وصلت ، وكل شيء على ما يرام ، وأن إجراءات دخولها تتم بسرعة والحمد لله .

قالت فى ارتياح :

ـ حمدًا لله .

تطلَّع إليها فى حنان أبوى غامر ، قبل أن يسألها :

ـ أخبرينى يا (دينا) .. هل تحبين (عماد) حقًا ؟!

تخضَّب وجهها بحمرة الخجل ، وهى تقول :

ـ هل تسألنى يا عماه ؟!

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ قلب الأب يبغى الاطمئنان .

أشاحت بوجهها فى حياء ، متمتمة :

ـ دعه يطمئن ..

تنهَّد فى ارتياح غامر ، وهو يتمتم :

ـ طَمْئَنَ الله (سبحانه وتعالى) قلبك .

انعقد حاجبا والدتها ، وهى تتابع هذا الحديث ، وأشارت إليها فى صرامة ، قائلة :

ـ (دينا) .. تعالى .

استأذنت من حميها ، وذهبت إلى أمها متسائلة :

ـ ماذا هناك ؟!

همست أمها فى غضب :

ـ كيف تفصحين عن حبك لخطيبك بهذا الوضوح ؟!

ضحكت (دينا) ، قائلة :

ـ آه يا أمى .. أنت تتعاملين بعقلية جيل مضى .. إننى أحب

(عماد) بالفعل ، والجميع يعلمون هذا ، وإخفاء الأمر سيثير الضحك لا أكثر .

قالت أمها فى حدة :

ـ الرصانة والوقار يحتمان هذا .

قالت (دينا) مبتسمة :

ـ والبساطة والوضوح يحتمان العكس .

ثم انحنت تطبع قبلة على خد أمها ، مستطردة :

ـ لا تحاولى فرض طبيعة جيلك علينا يا أمى ، فنحن من جيل آخر .

مطّت أمها شفتيها ، قائلة :

ـ جيل الندامة .

ضحكت (دينا) ، وهى تبتعد ، قائلة :

ـ ربما .

ارتفع رنين جرس باب الفيلا ، فى هذه اللحظة، فاندفعت نحوه فى لهفة وسعادة ، وهى تهتف :

ـ (عماد) وصل .

سبقت الخادم إلى الباب ، وفتحته فى سرعة وتهلّلت أساريرها ، وهى تهتف :

ـ حمدًا للّه على ...

بترت عبارتها دفعة واحدة ، وهى تحدّق فى ضابط الشرطة ، الذى وقف أمامها بملابسه الرسمية ، وخلفه بواب الفيلا ،

والدموع تغرق عينيه ، فى حين يقول الضابط ، فى رصانة مرتبكة :

ـ فيلا المليارديير (فؤاد صالح) .

جاء (فؤاد) من خلفها ، متسائلاً بكل قلق الدنيا :

ـ أنا (فؤاد صالح) .. ماذا هناك أيها الضابط ؟!

هتف البواب فى انهيار :

ـ (عماد) بك .. (عماد) بك .

هوى قلب (دينا) بين قدميها ، وتراجعت فى ارتياع ، وهى تردّد :

ـ (عماد) .. ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

أما (فؤاد) فقد شحب وجهه ، حتى كاد يحاكى وجوه الموتى ، وهو يتساءل :

ـ ماذا أصاب (عماد) ؟! ماذا أصاب ابنى ؟!

بدا الارتباك أكثر على الضابط ، وهو يجيب :

ـ مهمتى ليست سهلة يا (فؤاد) بك ، ولكن الأستاذ (عماد) كان يقود سيارته بسرعة ، فى طريق الإسكندرية الصحراوى ، عندما اعترضت طريقة سيارة نقل كبيرة ، و ...

صرخت (دينا) فى ارتياع مذعور ، قبل أن يكمل الضابط حديثه ، فى حين بدا (فؤاد) على وشك الانهيار ، وهو يسأل :

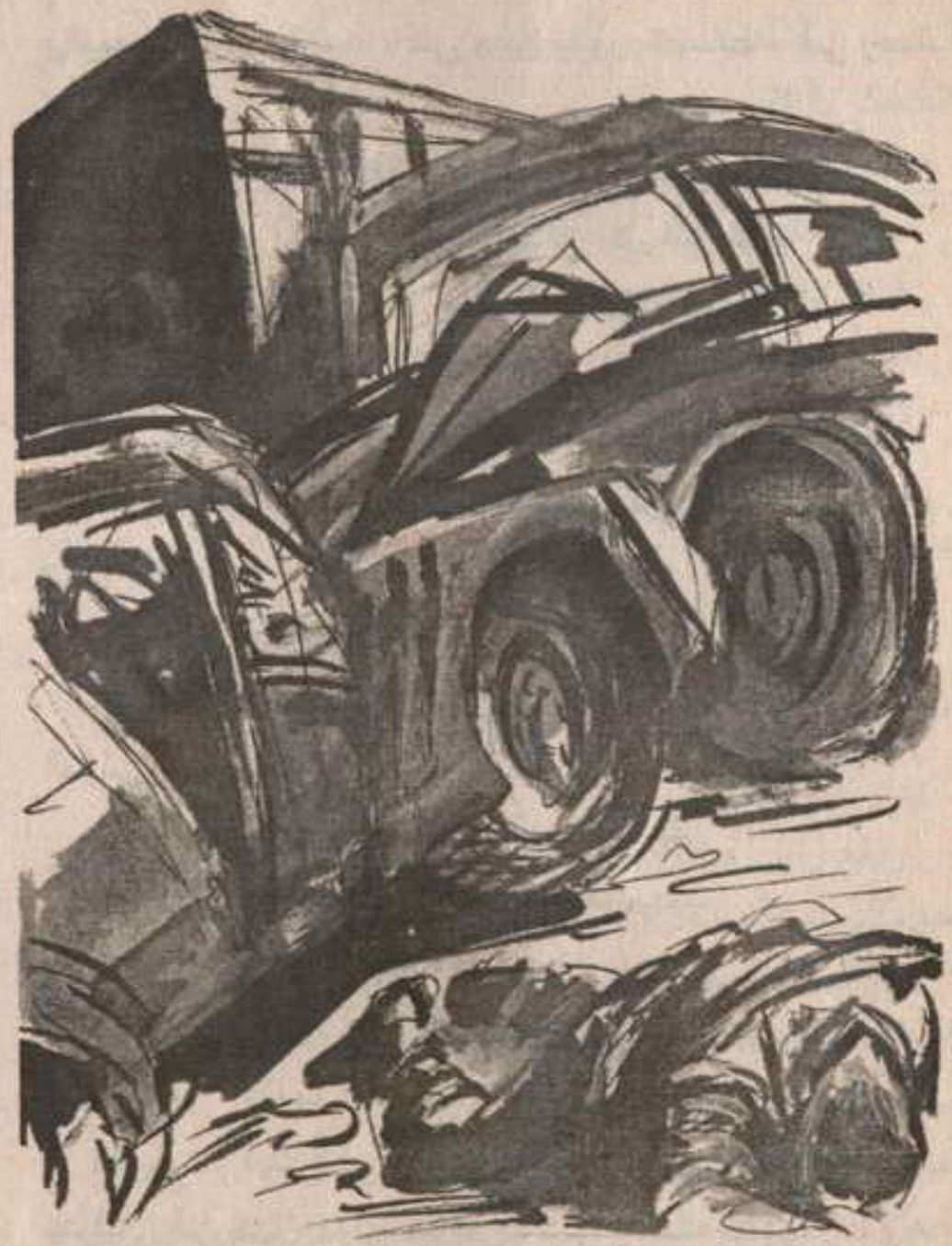

ـ هل .. هل أصيب ؟!

احتقن وجه الضابط ، وهو يجيب فى حرج :

ـ البقية فى حياتكم .. البقاء لله (سبحانه وتعالى) وحده ..

وعندئذ أطلقت (دينا) كل المحبوس فى كيانها ، على شكل صرخة ..

صرخة ارتجت لها الدنيا كلها ، بمنتهى العنف ..

والألم .

★ ★ ★

٣ ـ دمـــوع الزمـــن ..

اندفع العم (سمير صالح) عبر ممر المستشفى المعتم ، فى هلع واضح ، وانتفض قلبه بين ضلوعه ، عندما وقع بصره على شقيقه (فؤاد) ، الذى بدا شاحبًا منهارًا ، وهو يجلس أمام باب مشرحة المستشفى ، حيث ترقد جثة ابنه (عماد) ، والدموع تغرق وجهه كله ..

وبأصابع مرتجفة ، ربَّت (سمير) على كتفه ، متمتمًا فى وسط دموعه الغزيرة :

ـ البقية فى حياتك .

راح (فؤاد) ينتحب ، على نحو تمزَّقت له نياط قلب شقيقه ، قبل أن يشير بيده إلى باب المشرحة ، قائلاً بصوت يحمل كل ألم وحزن ومرارة الدنيا كلها :

ـ هل يمكن أن تصدِّق هذا ؟! هل يمكنك أن تستوعبه ؟! (عماد) مات .. مات يا (سمير) .. (عماد) ، خيرة شباب الدنيا ، لم يعد حيًّا مفعمًا بالدفء والنشاط ، كما كان دائمًا .. قلبه النابض بالطيبة والحب ، والعامر بالإيمان والوفاء ، توقَّف عن الخفقان .. (عماد) صار مجرَّد جثة تحمل بطاقة تعريف فى المشرحة ، مجرَّد جثة يا (سمير) .

ربَّت (سمير) على كتفه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ البقاء للّه وحده يا (فؤاد) .. له حكمته الواسعة ، التى تقتضى أحيانًا التعجيل بخيار الناس .

هزَّ (فؤاد) رأسه بمرارة ، متمتمًا :

ـ ونعم باللّه .

ثم عادت دموعه تنهمر فى غزارة ، وهو يتابع :

ـ ولكننى لم أتصوَّر قط أن يأتى هذا اليوم .. اليوم الذى أشهد فيه بنفسى موت ابنى الوحيد .. كنت أتصوَّر أنه هو الذى سيتقبَّل عزائى يومًا ، عندما تحين منيتى .

وقلب كفيه فى مرارة أكثر ، وشرد بصره ، وهو يحدِّق فى باب المشرحة ، متمتمًا :

ـ لا يمكننى أن أصدِّق .. حتى هذه اللحظة أعجز عن تصديق أنه قد ذهب .. رحل .. لم يعد ينتمى إلى دنيانا .

قال (سمير) فى خشوع فرضه الموقف :

ـ روحه عادت إلى بارئها .. تمنّ له الرحمة ، وادع اللّه (سبحانه وتعالى) أن يدخله فسيح جناته .

ارتجفت شفتا (فؤاد) ، وهو يواصل التحديق فى باب المشرحة ، قبل أن يقول فى مرارة :

ـ لماذا هو ؟!

لم يحسن شقيقه سماع عبارته ، فتساءل :

ـ ماذا تقول ؟!

انفجر (فؤاد) فى وجهه بغتة بغضب هادر :

ـ لماذا هو ؟! لماذا يموت (عماد) بالذات ، دون كل خلق الأرض .

تراجع (سمير) بدهشة بالغة ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! استغفر ربك يا رجل .. أى قول هذا ؟!

ولكن (فؤاد) واصل ثورته ، صائحًا :

ـ لماذا أفقد وريثى الوحيد ، بعد كل ما فعلته ؟! إننى لم أؤذ أحدًا .. لم أسرق أو أقتل ، أو أخرب البيوت العامرة ، كما فعل غيرى .. لماذا يحدث لى هذا ؟!

أمسك (سمير) كتفيه ، هاتفًا :

ـ اهدأ واستغفر ربك على كل ما قلته يا رجل .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا تفقد عقلك أمام هول الكارثة .. حاول أن تتقبل قضاء الله (سبحانه وتعالى) ، فلا راد لقضائه .

انفجر (فؤاد) باكيًا فى مرارة شديدة ، وهو يهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لماذا (عماد) ؟! لماذا ؟!

احتواه شقيقه بين ذراعيه فى حنان مشفق ، وراح يربّت على كتفه وظهره ، وهو يقول فى خفوت :

ـ أعلم فداحة المصيبة .. كلنا نعلم ، ونشعر بعمق كارثة فقد (عماد) (رحمه الله) .. لا يمكنك أن تتصوّر ما أصاب الجميع .. (دينا) المسكينة منهارة تمامًا ، حتى إن والديها قد نقلاها إلى المستشفى ، على الرغم من أنهما أشبه بالذاهلين ، منذ سمعا الخبر المشئوم ..

بكى (فؤاد) فى مرارة ، وهو يقول :

ـ لا أحد ، فى الدنيا كلها ، سيشعر بما أشعر به أنا .. لا أحد .. لقد خسرت كل شىء بموته .. كل شىء .. لا يمكننى أن أستمر بعده أبدًا .

تنهّد (سمير) ، قائلاً :

ـ الحياة ستمضى ، شئنا أم أبينا .. إنها إرادة الله (سبحانه وتعالى) .. لا أحد يعلم حكمته (سبحانه وتعالى) فيما يحدث .. ولا أحد يدرى أين يكمن الخير .. ربما يتصوّر المرء فى أمر ما شرًا ، ولكن الله (عزّ وجلّ) يخفى له فيه الخير ، كل الخير ، والعكس بالعكس .

ثم ربّت على ظهر شقيقه ثانية ، مكملاً :

ـ كل ما علينا هو أن نتقبّل قضاء الله (جلّ جلاله) ، وأن نؤمن بأن فيه الخير لنا ، مهما تصوّرنا العكس .

بكى (فؤاد) على صدره بكل ألم الدنيا ، وهو يقول :

ـ ولماذا أستمر ؟! ما فائدة المال ، لو لم ينجح فى إعادة ابنى إلى أحضانى ؟! ما فائدة كل أموال الدنيا ، لو عجزت عن استعادته ؟

تنهّد شقيقه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ أستغفر الله العظيم .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أموال الكون كله لا يمكن أن تعيد خلية واحدة منه يا رجل .. ما دام الله (سبحانه وتعالى) قد اختاره إلى جواره ، فلا أحد فى الدنيا يمكن أن يعيده ، مهما فعل .

هتف (فؤاد) :

ـ لا .. مستحيل ! مستحيل !

ثم توقَّف فجأة عن البكاء والهتاف ، وتجمَّد لحظة بين ذراعى شقيقه ، الذى سأله فى قلق شديد :

ـ (فؤاد) .. هل ...

قبل أن يتمّ عبارته ، انتفض (فؤاد) فجأة فى عنف ، ثم انتزع نفسه من بين ذراعى شقيقه فى حركة حادة ، والتفت إلى باب المشرحة فى حزم مخيف ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، على نحو جعل (سمير) يمسكه من كتفيه ، ويهزّه بقوة ، قائلاً فى ذعر :

ـ (فؤاد) .. ماذا أصابك ؟!

التفت إليه (فؤاد) فى حزم وصرامة شديدين ، وهو يقول :

ـ أريد أحد المسئولين بالمستشفى .. الآن .

شعر (سمير) بالدهشة والحيرة والقلق ، مع هذا المطلب المفاجئ ، فقال فى توتر :

ـ اهدأ يا (فؤاد) .

ضرب (فؤاد) ذراعيه فى حدة ، وهو يكرِّر فى صرامة أكثر :

ـ أريد أحد المسئولين بالمستشفى الآن .. الآن .

هرع إليه أحد معاونيه ، وهو يقول :

ـ أوامرك يا (فؤاد) بك .

أشار إليه (فؤاد) بذراعه ، قائلاً فى عصبية زائدة :

ـ أحضر أحد المسئولين هنا .. أكبر مسئول فى المستشفى .. أيقظ مديرها شخصيًا لو اقتضى الأمر .. لا تضع لحظة واحدة .

ثم ضرب الجدار بقبضته ، مستطردًا بانفعال جارف :

ـ لا بد من نقل (عماد) إلى ثلاجة المشرحة حالاً .

بدت الدهشة على المعاون والعم ، ولكن الأوَّل انتزع نفسه من دهشته فى سرعة ، واندفع لتلبية أمر رئيسه ، فى حين تساءل الثانى فى قلق شديد :

ـ نقله إلى ثلاجة المشرحة ؟! ولكن لماذا ؟! الأمر لا يحتاج إلى هذا .. لقد اتخذنا كل الإجراءات الـ ...

قاطعه فى عصبية :

ـ لا بد من نقله إلى الثلاجة الآن .. لن نضيع ثانية أخرى .. لا بد أن نحافظ على أى أثر للحياة فى خلاياه بأى ثمن .

اتسعت عينا العم عن آخرهما ، وردَّد مبهوتًا :

ـ الحياة .

ثم عاد يمسك كتفى شقيقه ، متسائلاً فى قلق عارم :

ـ ما الذى تفكِّر فيه يا (فؤاد) ؟! (عماد) (رحمه اللّه) مات بالفعل ، و ...

قاطعه (فؤاد) فى عنف انفعالى ، وكأنه حتى لم يسمعه ، وهو يقول بلهجة صارمة آمرة :

ـ احضر لى (حسن) .. الدكتور (حسن) .

حدَّق (سمير) فى وجهه ، متمتمًا :

ـ الدكتور (حسن) .. ومن الدكتور (حسن) هذا ؟!

صاح فى وجهه بانفعال ثائر :

ـ اتصل بـ (مروة) .. سكرتيرتى .. ستفهم ما أعنيه .. قل لها : إننى أريد الدكتور (حسن فكرى) .. لقد ترك حتمًا عنوانًا أو رقم هاتف .. قل لها أن تنبش الأرض بحثًا عنه .. أريده بأى ثمن .

ثم أمسك هو كتفى شقيقه ، وتطلَّع فى عينيه مباشرة ، وهو يصرخ :

ـ بأى ثمن يا (سمير) .. بأى ثمن .

قال (سمير) بكل قلق الدنيا :

ـ فليكن يا (فؤاد) .. فليكن .. أعدك أن أحضره إليك بنفسى ، مهما كان الأمر .

وانطلق يعدو لتنفيذ ما طلبه شقيقه ، وهو يتساءل فى حيرة قلقة : تُرى لماذا طلب وضع جثة (عماد) فى ثلاجة المشرحة ؟!

ولماذا يبحث عن الدكتور (حسن) هذا ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

★ ★ ★

استيقظ الدكتور (حسن) مذعورًا ، على صوت طرقات عنيفة ، على باب شقته الصغيرة ، فهتف بصوت مرتجف ،

وهو يلتقط منظاره ، ويضعه على عينيه ، اللتين لم يفارقهما النعاس بعد :

ـ مـ .. من الطارق ؟!

أجابه الطارق فى لهفة من خلف الباب :

ـ الدكتور (حسن) ؟!

قال متوترًا :

ـ نعم .. أنا هو الدكتور (حسن) .. من أنت ؟!

أجابه الطارق بسرعة :

ـ لقد أرسلنا (فؤاد) بك .. (فؤاد بك صالح) .

ارتفع حاجبا الدكتور (حسن) فى دهشة بالغة ، وألقى نظرة متوترة على ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى الواحدة بعد منتصف الليل ، قبل أن يفتح الباب فى حذر ، متسائلاً :

ـ وماذا يريد منى (فؤاد) بك ، فى مثل هذه الساعة .

رأى أمامه رجلان ضخما الجثة ، تشفّ ملامحهما عن توتر يفوق توتره ، وأحدهما يقول :

ـ لسنا ندرى ، ولكنه طلب منا إحضارك على الفور ، بأى ثمن .

مرة أخرى ارتفع حاجباه فى دهشة ، وعدَّل منظاره فوق أنفه ، وهو يتمتم فى ارتباك مضطرب :

ـ لست أدرى لماذا اللهفة والتعجُّل ؟! ألا يمكن للأمر أن ينتظر شروق الشمس على الأقل ؟!

تحوَّل توترهما إلى عصبية شرسة ، وأحدهما يقول :

ـ (فؤاد) بك قال : بأقصى سرعة ، ولا أحد يمكنه رفض أوامره .. فى هذه المحنة بالذات .

ردَّد مبهوتًا :

ـ محنة ؟! أية محنة ؟!

تبادل الرجلان نظرة ملؤها الحزن والأسى ، قبل أن يجيب الثانى بصوت يبكى دمًا :

ـ (عماد) بك رحل .

لم يكن قد التقى مرة واحدة فى حياته كلها بـ (عماد فؤاد صالح) ، إلا أنه كان ، ككل الناس ، يسمع الكثير والكثير عن الشاب وسمعته العطرة ، التى فاقت سمعة والده نفسها ، حتى إنه ردَّد مذعورًا :

ـ رحل ؟!

أجابه الرجلان فى آن واحد ، وبصوت يشفّ عن مدى حزنهما ومرارتهما :

ـ البقاء لله وحده .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وكأنه أيضًا لا يستطيع استيعاب الموقف ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ سأرتدى ملابسى ، وأذهب معكما على الفور .

وطوال الطريق ، لم يستطع عقله التوقف لحظة واحدة ، عن التفكير فى السبب ، الذى يدعو (فؤاد صالح) إلى استدعائه ، فى الواحدة صباحًا ، بعد مصرع ابنه الوحيد ..

وبكل الظروف والملابسات ، لم تستقر فى عقله ووجدانه سوى فكرة واحدة ..

فكرة مجنونة ..

ولكنه عاد يراجع معلوماته ، وتفاصيل لقائه الوحيد بالملياردير الشهير ، والحوار الذى تبادلاه عندئذ ، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه ، متمتمًا :

ـ لا .. مستحيل !

كانت الفكرة تبدو له مجنونة حمقاء ، حتى إنه أصرَّ على طرحها عن فكره ، على الرغم من توافقها مع كل المعطيات ..

حتى التقى بـ (فؤاد صالح) ..

كان يبدو مختلفًا تمامًا ، عن ذلك الرجل الفخم الأنيق ، الذى التقى به فى مكتبه ، منذ أسبوع واحد ..

كان شاحب الوجه ، منتفخ العينين ، محمر الأنف ، يجلس على أريكة خشبية نصف متهالكة ، أمام باب مشرحة المستشفى ، برباط عنق متهدِّل ، وسترة كادت تشكو من كثرة ما أصابها من بقع وأوساخ ..

ولكنه لم يكد يلمح الدكتور (حسن) ، حتى هبَّ من مجلسه ، واندفع نحوه ، يشدّ على يده فى حرارة عصبية ، هاتفًا :

ـ أشكرك يا دكتور (حسن) .. أشكرك كثيرًا لحضورك .

ارتبك الدكتور (حسن) ، وهو يغمغم :

ـ أنا رهن إشارتك دائمًا يا (فؤاد) بك .. البقية فى حياتك .

اغرورقت عينا الملياردير بالدموع ، وهو يقول :

ـ (عماد) ذهب يا دكتور (حسن) .. مات .. انتهى .

ازدرد الدكتور (حسن) لعابه فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـ إننى أقدِّر فداحة الكارثة يا (فؤاد) بك ، فرحيل شاب مفعم بالأمل ، مثل (عماد) بك ، هو بحق ..

قاطعه الملياردير فى حزم مباغت ، وبلهجة بدت ، مع احمرار عينيه وتضخمهما ، وكأنها هذيان شخص مخمور :

ـ ولكننى أرغب فى استعادته .

حدَّق الدكتور (حسن) فى وجهه بذهول ، متمتمًا :

ـ استعادته ؟!

أمسك (فؤاد) كتفيه فجأة فى قوة ، وهو يقول فى انفعال جارف :

ـ لقد أخبرتنى أنك تستطيع صنع نسخة بشرية ، من أى شخص كان .. هل تذكر حديثنا ؟! إننى أوافق يا دكتور (حسن) .. أوافق على مشروعك الخاص بالاستنساخ هذا .

كرَّر الدكتور (حسن) ، وقلبه يخفق فى قوة :

ـ توافق ؟! الآن ؟!

أجابه الملياردير بنفس الانفعال :

ـ نعم يا دكتور (حسن) .. أوافق بكل إرادتى .. سأموِّل مشروعك وتجاربك ، مهما بلغت التكاليف المطلوبة .. أريد منك أن تبدأ على الفور .. اكتب قائمة بكل ما تحتاج إليه ، وسيحضره رجالى على الفور ، مهما كان ثمنه .

شعر العم (سمير) بالقلق على شقيقه ، مع كل هذا الانفعال ، فتقدَّم نحوه ، وجذبه فى رفق ، محاولاً إعادته إلى تلك الأريكة الخشبية نصف المتهالكة ، ولكن الملياردير تابع بكل توتر وانفعال الكون :

ـ المهم أن تصنع لى نسخة منه .

تجمَّدت يدا العم ، على كتفى شقيقه ، واتسعت عيناه فى ذهول مرتاع ، فى حين تراجع الدكتور (حسن) ، مغمغمًا ، وهو يشير إلى باب المشرحة :

ـ أصنع لك نسخة منه ؟! هل تعنى ..

هتف (فؤاد) ، ودموعه تتفجَّر كالسيل :

ـ نعم .. من (عماد) .. ابذل قصارى جهدك ، واستخدم

كل علومك وعبقريتك ، لتصنع لى نسخة منه .. أرجوك يا دكتور (حسن) .. أرجوك .

بدا منهارًا ، على نحو يدعو للشفقة والرثاء ، وهو يتوسل للعالم الشاب أن يقبل عرضه ، فهتف شقيقه مستنكرًا :

ـ نسخة من (عماد) ؟! أى قول هذا يا (فؤاد) ؟! عد إلى رشدك يا رجل .. ابنك مات ، وصعد إلى خالقه !! لا تجعل الحزن يفقدك عقلك إلى هذا الحد .

دفعه (فؤاد) بمرفقه فى عنف ، صارخًا :

ـ لا .. لم أفقد عقلى .. إننى أفكر بمنتهى العقل والحكمة .. هذا الرجل قادر بالفعل على صنع نسخة من ابنى الوحيد .

ثم تشبَّث بالدكتور (حسن) الذاهل ، وهو يستطرد ، فى لهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ لقد طلبت نقله إلى ثلاجة المشرحة ، حتى أحافظ على بعض الخلايا سليمة .. هذا مهم للغاية .. أليس كذلك ؟!

غمغم الدكتور (حسن) ، وهو يعدِّل منظاره على أنفه :

ـ بالتأكيد ، ولو أن الـ (دى. إن. إيه) يبقى صالحًا ، حتى ولو ...

قاطعه (سمير) ، هاتفًا :

ـ ماذا دهاك أنت أيضًا يا دكتور (حسن) .. هل ستوافقه على رأيه هذا ؟! هل ستساعده على تحقيق مطلبه المستحيل ؟!

أجابه مرتبكًا :

ـ إنه ليس مستحيلاً فى الواقع .. صحيح أن أحدًا لم يفعلها من قبل ، إلا أن المبادئ العلمية سليمة تمامًا ، ولا يوجد ما يمنع تحقيقها .

احتقن وجه (سمير) فى شدة ، وهو يهتف :

ـ لقد جننتما .. أصابكما الجنون حتمًا !! ما هذا الذى تتحدثان عنه ؟! عودا إلى رشدكما ، قبل أن تبلغا مرحلة الكفر والعياذ بالله .. (عماد) مات .. مات حسب إرادة خالقه .. الذى منحه الروح دون إرادتنا ، شاء أن يستردها الآن ، فلماذا نرفض هذا .

أجابه الدكتور (حسن) فى عصبية :

ـ ومن تحدَّث عن الروح وإعادتها يا رجل ؟! (عماد) مات .. هذه حقيقة واقعية ، لا أحد يمكنه نفيها ، أو حتى مجرَّد مناقشتها .. إننا لن نعيد إليه الروح ، مهما فعلنا أو أنفقنا .. ولكننا نتحدَّث عن أمر آخر ، علمى تمامًا .. إننا نتحدَّث عن انتزاع نواة إحدى خلاياه ، بما فيها من مادة (D.N.A) ، وزرعها فى بويضة ، تم قتل نواتها ، حتى ينشأ جنين جديد ، يحمل كل الصفات الوراثية لـ (عماد) .

هتف (سمير) :

ـ ولماذا نفعل هذا ؟! لماذا نسعى لإيجاد نسخة منه ؟! من يضمن أن يأتى هذا الجنين الجديد بـ (عماد) آخر ؟!

أشار إليه (حسن) ، قائلاً فى حزم :

ـ إنه سيكون نسخة طبق الأصل منه .

هتف (فؤاد) بعصبية :

ـ هل سمعت يا (سمير) ؟! هذا هو رأى العلم .. سيعود إلينا (عماد) ، بكل صفاته وسماته ، و ...

قاطعه الدكتور (حسن) فى ارتباك :

ـ احم .. الواقع أن ...

لم يكمل عبارته على الفور ، فاندفع (سمير) يقول :

ـ أرأيت ؟! هو نفسه غير واثق مما يقول .

هتف الدكتور (حسن) معترضًا :

ـ خطأ .. أنا واثق تمام الثقة .

ثم تراجع ، متابعًا بلهجة أقل عنفًا :

ـ الواقع أن العلم يقول : إن الإنسان ليس نتاج الوراثة وحدها ، فصفاته الوراثية هى أحد عوامل ثلاثة ، تتوقف عليها شخصيته .

سأله (فؤاد) فى قلق :

ـ وما العاملان الآخران ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ البيئة التى ينشأ فيها الفرد ، وقدرته على التفاعل معها ..

هتف (فؤاد) :

ـ عظيم .. القادم الجديد سينشأ حتمًا فى الظروف نفسها ، التى نشأ فيها (عماد) .. إنه سيصبح نسخة طبق الأصل منه بالتأكيد .

عاد (سمير) يمسك كتفيه فى قوة ، وهو يقول :

ـ (فؤاد) .. اسمعنى جيدًا .. ربما كان إحساسك بالخسارة يدفعك لتصور أنك تمضى فى الطريق الصحيح ، ولكن حذار أن يخدعك عقلك ، أو تنال منك عواطفك .. ذلك الذى تسعى إليه لن يعيد إليك (عماد) .. والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ما الذى يمكن أن ينتهى إليه هذا العبث .. ارض بقضاء الله (عزّ وجلّ) ، وادفن ابنك ، واطلب له الرحمة .. ارض بما حدث ، لأننا نجهل ما يخفيه لنا القدر .. إننى أسعى لصالحك يا (فؤاد) .. حاول أن تفهمنى يا شقيقى الوحيد ..

تمتم (فؤاد) :

ـ إننى أفهمك .

نطقها فى خفوت شديد ، حتى إن (سمير) سأله فى قلق :

ـ ماذا تقول ؟!

ضرب (فؤاد) ذراعى شقيقه فى عنف مباغت ، صارخًا :

ـ إننى أفهمك .

ثم تراجع ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجهه ثائرًا ، ومستطردًا :

ـ أفهمك جيدًا يا (سمير) .. أفهم لماذا تحاول منعى من السعى للحصول على وريث .. لقد أسعدك موت (عماد) بالتأكيد ، لأن هذا يحرمنى من وريثى ، ويجعل لك نصيبًا ضخمًا من ثروتى .

اتسعت عينا (سمير) فى ذهول ، وهو يهتف :

ـ أنا يا (فؤاد) .

صاح به (فؤاد) :

ـ نعم .. أنت يا شيخ المشايخ .. ولكن لا تطمئن كثيرًا .. سأستعيد وريثى ، ولن تأخذ قرشًا واحدًا من ثروتى .. هل تفهم .. لن ترثنى قط .

امتقع وجه (سمير) ، وهو يحدق فيه غير مصدق ، قبل أن يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ يا للخسارة !

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع فى مرارة :

ـ فليكن يا (فؤاد) .. لا يمكننى أن أحاسبك على ما تلفظت به ، فى مثل هذه الظروف .. لا يمكننى حتى أن أعاتبك ، ولكن يكفينى أننى قد أسديت إليك النصح ، وحذرتك من مغبة ما ستقدم عليه .

أجابه (فؤاد) فى صرامة غاضبة :

ـ احتفظ بنصائحك لنفسك .. لا أحد سيملى علىّ قراراته أبدًا ، ما دام فى صدرى نفس يتردد .

زفر (سمير) فى استسلام ، والتفت بنظرة عاتبة إلى الدكتور (حسن) ، الذى ارتبك ، قائلاً :

ـ لا يمكننى رفض فرصة كهذه .. إنه عرض مدهش لاستكمال أبحاثى ، وتحقيق حلم حياتى .. حاول أن تفهم هذا .. نجاحى فى صنع هذه النسخة البشرية سيضعنى فى موقع الريادة ،

بالنسبة لهذا المجال .. سأسبق الجميع بعشر أو عشرين عامًا من البحث على الأقل .

قال (سمير) فى مرارة :

ـ وماذا لو فشلت ؟!

احتقن وجه الدكتور (حسن) ، وهو يلوّح بكفه ، قائلاً :

ـ فى هذه الحالة لن يعلم أحد .

هتف (فؤاد) فى غلظة :

ـ لن أسمح بالفشل قط .

التفت إليه (سمير) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ هذا ما تريده أنت .

ثم استدار ليغادر المكان كله ، وهو يتابع :

ـ ولكن الله (سبحانه وتعالى) يفعل فقط ما يريد .

ران صمت مهيب على المكان ، والاثنان يراقبان (سمير) ، حتى اختفى فى نهاية الممر ، ثم قال (فؤاد) فى لهفة :

ـ دكتور (حسن) .. ما الذى تحتاج إليه ، لتحصل على الخلايا المطلوبة .

تطلّع إليه الدكتور (حسن) لحظة فى صمت ، ثم عدّل منظاره فوق أنفه ، واعتدل فى وقفته ، وهو يقول فى حزم :

ـ (فؤاد) بك .. قبل أن نبدأ هذا ، هناك أمور مهمة للغاية ، لا بد من توضيحها .

سأله الملياردير فى قلق :

ـ وما هى ؟!

أجابه فى لهجة قوية :

ـ الخطأ الذى يقع فيه معظم الناس ، إذا ما ذكرت أمامهم كلمة الاستنساخ هذه ، هو أنهم يتصوَّرون أننا نمتلك آلة ناسخة ، نضع فيها الخلية من جانب ، فتخرج لنا نسخة من صاحبها الأصلى ، من الجانب الآخر ، وهذا المفهوم غير صحيح على الإطلاق ؛ فعملية الاستنساخ لا تختلف كثيرًا عن عملية إنتاج أطفال الأنابيب ؛ ففى كليهما سنحصل على بويضة مخصَّبة ، لا بد من زرعها فى رحم أنثى ، حتى تكتمل عملية نموّها الطبيعية ، وينشأ منها جنين صحيح ، يقضى أشهر الحمل كاملة ، ثم يولد على نحو طبيعى ، ليبدأ حياته وسطنا .. الفارق الوحيد بينهما هو أنه فى حالة الاستنساخ تكون البويضة خالية من الصبغيات تمامًا ، مما يعنى أن الجنين سيحمل كل الصفات الوراثية لصاحب الخلية الأوَّلية ، على عكس جنين أطفال الأنابيب ، الذى سيحمل ، كأى جنين طبيعى ، مزيجًا من الصفات الوراثية المكتسبة من الأبوين .. وفى كل الأحوال فإن هذا لن يتمّ فى يوم وليلة .. ولن يتم حتى من المحاولة الأولى .. ستكون هناك محاولات عديدة فاشلة ، وتجارب غير سليمة ، وحالات لن يكتمل فيها انقسام البويضة ، حتى تبلغ الحد اللازم لإعادة زرعها فى الرحم .. وهذا قد يستغرق عامًا أو عامين ، وربما أكثر .. لا أحد يمكنه التحديد

أو الجزم ، ولكن كل المراحل الأوَّلية ، الخاصة بانتزاع نواة الخلية ، وزرعها فى البويضة عديمة النواة ، ستحتاج إلى صبر شديد ، وتكنولوجيا متقدِّمة ، مع تقنية متطوِّرة للغاية .

أجابه (فؤاد) فى عصبية :

ـ إننى مستعد لتحمل كل التكاليف ، مهما بلغ حجمها .

تابع الدكتور (حسن) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ الأمر سيحتاج أيضًا إلى طبيب نساء وتوليد بارع ، كما أنه من المحتم أن تتم العملية كلها خارج (مصر) .

سأله (فؤاد) فى توتر :

ـ ولماذا ؟!

أجابه فى حزم :

ـ حتى لا ندخل فى تعقيدات قانونية وإجرائية لا لزوم لها .. إننا نحتاج إلى مناخ يحمى ويشجِّع العلم والعلماء ، وهذا لا يوجد إلا فى البلدان المتقدِّمة ، مثل (أمريكا) أو (سويسرا) مثلاً ، وأنا أرشح الأخيرة بالتحديد ؛ لأن بها الدكتور (هنريخ) ، أستاذ النساء والتوليد ، الذى يهتم مثلى بهذه الأبحاث .. سنتعاون معًا ، لننجز العمل فى أفضل صورة ممكنة .

هزَّ (فؤاد) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كل هذا يمكن تدبيره .. إنها مسألة نقود فحسب ، وليس عليك أن تقلق بشأنه .. أرسل للدكتور (هنريخ) هذا على الفور ، وأبلغه أن يستعد ، وأنك ستسافر إلى (زيورخ) خلال يومين على الأكثر ، ومعك كل ما يلزم لبدء العملية .

ثم عاد يتشبَّث به فى ضراعة ، مستطردًا :

ـ والآن ، هل ستحصل على الخلايا المطلوبة ؟!

أشار إليه الدكتور (حسن) ، قائلاً :

ـ بقى أمر واحد .

سأله مضطربًا :

ـ وما هو ؟!

مال الدكتور (حسن) نحوه ، قائلاً :

ـ الأم .

تراجع (فؤاد) فى دهشة ، وهو يغمغم :

ـ الأم ؟! أية أم ؟!

أجابه الدكتور (حسن) :

ـ فى الخارج لا يهتمون كثيرًا بهذه النقطة ، ولكنك تبحث عن وريث قانونى بالتأكيد ، وهذا يحتم أن تتزوَّج ، وأن تكون زوجتك هى صاحبة البويضة ، التى سيتمّ تخصيبها بالخلية البشرية .

امتقع وجه (فؤاد) ، وهو يقول :

ـ خلية (عماد) ؟! ابنى ؟!

أجابه الدكتور (حسن) فى حسم :

ـ بالتأكيد .

تراجع (فؤاد) كالمصعوق ، وازداد امتقاع وجهه على نحو مقلق ، وهو يستند إلى الجدار ، متمتمًا :

ـ ولكن هذا مستحيل ! مستحيل تمامًا !

ارتفع حاجبا الدكتور (حسن) فى دهشة ، وهو يتساءل :

ـ ولماذا مستحيل !

أجابه (فؤاد) كالمذعور :

ـ لأنها خلية ابنى يا رجل .. كيف يمكن لأى مخلوق أن يقبل بهذا ؟! خلية ابنى تخصَّب بويضة زوجتى ؟! ألم تسأل نفسك يا هذا عما سينشأ عن هذا ؟!

امتقع وجه الدكتور (حسن) بدوره ، وهو يقول :

ـ ربَّاه ! إننى لم أفكر فى هذا بالفعل .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد فى توتر :

ـ منذ جالت فكرة الاستنساخ برأسى ، كنت أفكر فى أن أكثر من سيسعون إليها ستكون بغيتهم هى صنع نسخة من أنفسهم ، ولم يخطر ببالى قط أن يأتينى من يرغب فى صنع نسخة من ابن لقى مصرعه .

وهزَّ رأسه فى قوة ، وهو يعدِّل منظاره فوق أنفه ، قائلاً فى عصبية :

ـ يا إلهى ! إنها مشكلة حقيقية !

انهار الأمل فى أعماق (فؤاد) ، وارتجفت ساقاه ، حتى لم تحتملا ثقله ، فهوى جالسًا على تلك الأريكة شبه المتهالكة ، التى أصدرت صريرًا كالأنين ، فى حين راح الدكتور (حسن) يسير فى المكان ، فى توتر بالغ ، وقد انعقد حاجباه ، على نحو

يشفّ عن التفكير العميق ، و (فؤاد) يدفن وجهه بين كفيه ، قائلاً :

ـ الرحمة يا إلهى ! الرحمة !

وعادت الدموع تنهمر من عينيه كالسيل ، وهو يردّد :

ـ سامحنى يا (عماد) .. سامحنى يا ولدى .. لقد حاولت ..

التفت إليه الدكتور (حسن) ، فى حركة حادة ، وهو يسأل فى حماس :

ـ قل لى يا (فؤاد) بك : هل تبحث عن وريث شرعى ، أم وريث قانونى ؟!

رفع (فؤاد) عينيه إليه ، قائلاً فى حيرة :

ـ وما الفارق ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ فارق ضخم للغاية فالوريث الشرعى هو وريث من صلبك .. ابن حقيقى ، يحق له أن يرثك من الناحية الشرعية ، أما الوريث القانونى ، فهو شخص يتمتع بالصفة القانونية ، التى تتيح له أن يرثك ، والفارق بين الشرع والقانون هو أن الأخير لا يهتمّ سوى بالأوراق والرسميات ، والتوقيعات والأختام القانونية .

ارتجف قلب (فؤاد) ، وهو يسأل :

ـ دكتور (حسن) .. ما الذى تعنيه بالضبط ؟!

أجابه فى حزم :

ـ أعنى أننا نستطيع تدبير الأمر ، بحيث نحصل على البويضة من امرأة عادية ، مصرية أو سويسرية ، وأنا أفضّل الأخيرة ؛ لأنها ستعتبر الأمر مجرّد صفقة تجارية ، ولن تلقى الكثير من الأسئلة ، أو تلاحق الوليد فيما بعد ، ثم نعيد البويضة بعد تخصيبها إلى رحمها ، لتحملها حتى يحين الوضع ، فتلد النسخة المنشودة ، وخلال هذه الفترة ، ستعلن أنك قد تزوّجت امرأة سويسرية ، ولن يراها أحد ، حتى تتمّ الولادة ، وتعود بالطفل ، لتعلن أن زوجتك قد لقيت مصرعها عند ولادتها ، وتسجّل الطفل باسمك قانونًا ، فيصبح وريثك الرسمى ، دون أن يدرى سوانا حقيقة أمره .

عاد وجه (فؤاد) يمتقع ، وهو يحدّق فى وجه الدكتور (حسن) ، الذى شعر بما يعانيه ضمير رجل الأعمال ، فقال فى صرامة :

ـ إما هذا ، أو تنسى فكرة الاستنساخ هذه تمامًا .

اتسعت عينا (فؤاد) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا يمكننا نسيانها .. أرجوك .

سأله فى صرامة واقتضاب :

ـ إذن ؟!

حدّق الملياردير فيه مرة أخرى ، قبل أن ينهض من مجلسه فى صعوبة ، ويتطلّع إلى باب المشرحة بكل انفعاله ، متمتمًا :

ـ ولكن ما الذى سيعنيه هذا ، من الناحية الشرعية ؟!

هزَّ الدكتور (حسن) رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. معلوماتى قليلة للغاية فى هذا الشأن .

ارتجفت شفتا الملياردير ، وعقله يتصارع مع قلبه فى عنف ، بحثًا عن مخرج من هذه المشكلة العويصة ..

تُرى هل ستقبل تلك المرأة السويسرية ، أيًا كانت ، عرضًا كهذا ؟!

وماذا سيكون وضعها ؟!

من الناحية الشرعية بالطبع !

إنها ستحمل فى جسدها جنينًا ، هو نسخة طبق الأصل من ابنه ، الذى يرقد ميتًا ، على بعد أمتار قليلة منه ..

فما الذى يمكن أن يوصف به هذا ؟!

هل ستصبح زوجة لابنه ؟!

مستحيل !

لا أحد يتزوَّج بعد موته ؟!

هل سيصبح حملاً غير شرعى إذن ؟!

ومن سيتحمَّل وزره ؟!

من ؟!

امتلأ قلبه بهلع لا حدود له ، وبدأ عقله يستوعب فداحة ذلك العبث ، الذى يقدم عليه ، ومدى ما يمكن أن يؤدَى إليه من ارتباك فى ناموس الحياة ..

ولكن شيئًا ما فى أعماقه كان يرفض الاستسلام لنداء العقل والضمير ..

شىء ما فى كيانه ، وغريزة البقاء الكامنة فى أعماقه ، كان يرفض التخلى عن الرغبة العارمة فى الحصول على وريث ..

على امتداد لاسمه وحياته وسيرته ..

على بديل لولده الوحيد ، الذى انتزعته منه مخالب الموت ، بكل قسوة وعنف ..

على (عماد) الثانى ..

النسخة ..

الأمل ..

الامتداد ..

وفى توتر بالغ ، أشاح (فؤاد) بوجهه ، وكأنما يتفادى مواجهة ضميره ، وهو يقول بصوت شاحب خافت مختنق :

ـ ابحث عن تلك السويسرية .

استرخت أعصاب الدكتور (حسن) ، وزالت توتراته ، وانعكس هذا على صوته وملامحه ، وهو يقول :

ـ عظيم .. يمكننا البدء إذن .

ثم اتجه نحو باب المشرحة ، ودفعه بيده ، متسائلاً :

ـ هل سنحتاج إلى تصريح رسمى من المستشفى ؟!

هزَّ (فؤاد) رأسه ، قائلاً فى عصبية :

ـ كلا .. لقد سوَيت الأمور هنا .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ النقود لها فوائد كثيرة ، فى مثل هذه الظروف .

أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهمًا ، وقال :

ـ يمكننى استيعاب هذا .

وأشار بيده ، مستطردًا :

ـ مُر رجالك بإحضار أحد الأوعية الحافظة للحرارة ، وكثير من الثلج .

نطقها ، وهو يتجه إلى ثلاجة المشرحة ، ليبدأ مشروعه .. ذلك المشروع الرهيب ، الذى لا يعلم منتهاه سوى اللّـه (سبحانه وتعالى) ..

وحده .

★ ★ ★

٤- التجـــربة ..

(سويسرا) ، فى السابع من نوفمبر ١٩٧٩م

المحترم / (فؤاد بك صالح) ..

بعد التحية ..

سيِّدى .. يسعدنى أن أبلغك أننا قد تجاوزنا عنق الزجاجة ، فى تجاربنا الخاصة بصنع نسخة بشرية من وريثكم الوحيد (عماد) ..

لقد نجحنا صباح اليوم ، الدكتور (هنريخ) وأنا ، فى عزل نواة الخلية الجسدية ..

هذا قد يبدو لك سهلاً بسيطًا ، ولكن الواقع أننا قد استغرقنا الأشهر الستة الماضية كلها ، فى إجراء التجارب الخاصة بهذا الأمر ، وفى كل مرة ، وعلى الرغم من التكنولوجيا المتطوِّرة التى نستخدمها ، كانت النواة تصاب أو تتلف ، حتى استعنا أخيرًا بالدكتور (جون فريدريش) ، خبير الجراحة المجهرية ، الذى استخدم تقنية جديدة ، ساعدتنا أخيرًا على عزل النواة سليمة ، بكل ما تحويه من مادة (D.N.A) ، التى تحمل كل صفات (عماد) الوراثية كاملة ..

ولا يمكنك يا سيِّدى أن تدرك مدى سعادتنا ، بالوصول إلى هذه النتيجة ، فهذه هى المرة الأولى التى ينجح فيها هذا الأمر ،

مع خلية بشرية ، بعد التجارب الناجحة ، التى قام بها ، فى أواخر الستينات الدكتور (ر. بريجز) وزميله (ت. ج. كينج) ، والنتيجة الرائعة التى توصل إليها بعدهما الإنجليزى (ج. ب. جوردن) ، عندما نجح فى استنساخ ضفدع إفريقى ، بوساطة جراحة مجهرية(*) ..

والعجيب أنه عقب تجربة (جوردن) ، تنبأ العالم البيولوجى الدكتور (روبرت سينشمير) ، عام ١٩٦٨م ، بأنه سيصبح بالإمكان استنساخ البشر ، خلال عشر سنوات(**) ، وكما ترى ، فقد بدأت نبوءته تتحقق ، فى نفس الزمن تقريبًا ..

ولكن دعنا من هذه التفاصيل العلمية ، التى لن تفيدك أو تهمك على الأرجح يا (فؤاد) بك ، ويكفى أن تعلم أنه الآن فقط ، صرنا أقرب ما نكون إلى النجاح ، وسنبدأ فى البحث عن المتطوّعة ، بعد نجاحنا فى عزل أنوية خمس خلايا أخرى على الأقل ، وهذا سيحتاج إلى شهر واحد على الأكثر ..

سيِّدى .. تهانئى مبدئيًا ، حتى نلتقى .

د. (حسن فكرى)

قرأ (فؤاد) الخطاب ثلاث مرّات متتالية ، وهو يرتجف من فرط الانفعال ، وقلبه يخفق فى قوة ..

(★) حقيقة علمية تاريخية ..

(★★) حقيقة ..

أخيرًا صار الحلم قريبًا ..

ها هى ذى الخطوة الأولى تتحقق ..

عنق الزجاجة ، كما يسميها الدكتور (حسن) ..

بعد ستة أشهر ، ومليونى دولار ، تحققت الخطوة الأولى ..

تُرى هل تكون بالفعل بداية لتحقيق الحلم ..

هل تنقلهم حقًا إلى الخطوة الثانية ، والثالثة ؟!

ثم إلى الهدف ..

إلى إنتاج البديل ..

الوريث المنتظر ..

« (فؤاد) بك .. »

انتزعه صوت سكرتيرته ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، من أفكاره وشروده ، بصوتها المتوتر المضطرب ، فطوى الخطاب ، وهو يضغط زر الجهاز ، قائلاً :

ـ ماذا هناك يا آنسة (مروة) ؟!

صمتت لحظة لسبب ما ، قبل أن تجيب ، فى شىء من العصبية :

ـ الآنسة (دينا) هنا .

انعقد حاجباه ، وهو يقول فى توتر :

ـ (دينا) ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ نعم .. (دينا) .. خطيبة المرحوم (عماد) .

انتفض قلبه بين ضلوعه ، وهو يسأل :

ـ وماذا تفعل (دينا) هنا ؟!

أجابته بتوتر زائد :

ـ إنها تصرّ على دخول مكتب (عماد) بك (رحمه الله) ، وتقول : إنها بحاجة شديدة لرؤيته .

صمت بضع لحظات ، حتى إن سكرتيرته تساءلت فى قلق :

ـ (فؤاد) بك .. هل تسمعنى ؟!

أجاب :

ـ نعم يا آنسة (مروة) .. أسمعك ، ولكننى أفكّر فى الأمر .

سألته فى توتر :

ـ هل نسمح لها بدخول مكتب (عماد) بك ؟! سعادتك أمرت بتركه على حاله ، منذ .. منذ ...

لم تستطع إتمام عبارتها .

فازدرد لعابه فى صعوبة ، وقال :

ـ دعيها تأتى إلىّ .

أجابته فى ارتياح ، وكأنما يزيح هذا القرار حملاً ثقيلاً عن كاهلها :

ـ أمرك يا (فؤاد) بك .. أمرك .

لم تمض ثوان على قولها ، حتى سمع دقات رقيقة على باب مكتبه ، فقال :

ـ تفضّلى يا بنيتى .

دلفت (دينا) إلى حجرته بخطوات رقيقة ، جعلتها أشبه بملاك يطير فوق الأرض ، وهى تتمتم بصوت شديد الخفوت :

ـ صباح الخير يا عمى .

لم تكن تبدو أبدًا كـ (دينا) التى عرفها من قبل ..

لقد صارت نحيلة ، شاحبة ، ممتقعة ، وكأنما فقدت كل وزنها وحيويتها ، خلال الأشهر الستة الماضية ..

وبمنتهى التعاطف والإشفاق ، أسرع إليها ، وصافحها فى حنان ، ثم قادها إلى الأريكة الوثيرة فى ركن المكتب ، وجلس إلى جوارها يسألها :

ـ كيف حالك يا بنيتى ؟!

غمغمت فى حزن عميق :

ـ حالى ؟!

سألها مشفقًا :

ـ ماذا فعلت بك الحياة ؟!

أغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تخفضهما ، قائلة :

ـ لم أعد أشعر بالحياة يا عمى ، منذ ...

لم تتم عبارتها ، والدموع تنهمر من عينيها غزيرة ، فربّت على كتفها بحنان أبوى ، قائلاً :

ـ الحياة تمضى يا بنيتى ، مهما امتلأت القبور .

هزّت رأسها فى مرارة ، قائلة :

ـ أحيانًا أتمنى لو ضمنى قبر واحد معه .

قال فى هلع :

ـ لا .. لا تتحدثّى هكذا أبدًا .. أطال اللّه فى عمرك ، ومتّعك بالصحة والعافية .

بكت فى مرارة ، قائلة :

ـ لم يعد بإمكانى العيش دونه .. لقد حاولت ، وفشلت .. أبى وأمى أخبرانى أن الأيام كفيلة بمحو ذكراه من نفسى ، ولكن هذا لم يحدث أبدًا .. إننى أذكره طوال الوقت ، وأستعيد كل لحظة قضيناها معًا دائمًا .. كل لقاء .. كل جملة .. بل كل حرف نطقه ، أو همس به فى أذنى .. لا يا عمى .. لن يمكننى نسيانه قط ، حتى إننى .. إننى ..

وعضّت شفتيها ، قبل أن تستطرد فى انهيار :

ـ فكّرت فى الانتحار .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فيها ..

أإلى هذا الحد تحب (دينا) ابنه الراحل ؟!

أإلى هذا الحد يتشبّث به قلبها ؟!

لم يكن يتصوّر قط أنه هناك مخلوق ، فى الكون كله ، يمكن أن يحب (عماد) ، كما أحبه هو !

ولكن ها هى ذى (دينا) تثبت أنه كان مخطئًا ..

كم هى غارقة فى حبه ؟!

وبينما كان يتطلّع إليها ، امتلأ قلبه فجأة بالحسرة ..

يا للخسارة !

القدر لم يمهل ابنه ، حتى يتمتّع بكل هذا الحب ..

لم يمهله حتى يتزوّج (دينا) ، وينجب منها إبنًا ..

ابنًا من صلبه ..

ابنًا يحمل اسمه ..

ويرث ثروته ..

وفى تلقائية ، ودون أن يدرك ما يجرى على لسانه ، أحاط كتف (دينا) بحنان أبوى غامر ، وهو يقول :

ـ سيعود يا (دينا) .. (عماد) سيعود إلينا .

رفعت إليه عينين ذاهلتين محمرتين ، وهى تتساءل :

ـ سيعود ؟!

ارتبك لقولها ، وانتبه بغتة إلى زلة لسانه ، فحدّق فيها لحظة ، ثم هبَّ واقفًا ، وابتعد عن الأريكة بخطوات واسعة عصبية ، جعلت الفتاة تنهض خلفه ، قائلة :

ـ ماذا كنت تقصد يا عماه ؟!

انفرجت شفتاه لحظة ، وهو يهمّ بإلقاء تفسير منطقى ، إلا أن شيئًا ما فى أعماقه حجب هذا عن شفتيه ، وجعله يفكّر لحظة فى توتر ..

لماذا يخفى عنها الأمر ؟!

لماذا يحمل وحده هذا السر ، الذى يثقل كاهله ، ويقض مضجعه ؟!

من حقها أن تعلم ..

هى أيضًا أحبَّت (عماد) كما لم تحبه امرأة أخرى ..

ومن يدرى ؟!

ربما يمنحها هذا الأمل ، كما حدث معه ..

ربما ساعدها على أن تتقبّل فكرة رحيل (عماد) ، وتنتظر مثله مولد نسخته القادمة ..

ربما ..

ودون كلمة واحدة ، بل ودون حتى أن يلتفت إليها ، التقط الخطاب ، الذى أرسله الدكتور (حسن) ، وناولها إياه ..

ولسبب ما ، اختطفت الخطاب منه فى لهفة ، وعادت إلى الأريكة ، لتلتهم كلماته التهامًا ..

ولم تصدّق عينيها وعقلها فى البداية ..

لذا فقد قرأت الخطاب مرة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وفى النهاية ، رفعت عينيها إلى (فؤاد) ، متسائلة بكل لهفتها :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابها فى توتر :

ـ نفس ما قرأته بالضبط .. إننى أمولُ مشروعًا ضخمًا ، لإنتاج نسخة من (عماد) .

ارتجفت شفتاها ، وهى تتمتم :

ـ نسخة منه ؟!

خُيِّل إليها أنها قد نطقت الكلمات بقلبها وليس بلسانها ، فقد ارتجف القلب وانتفض وخفق ، مع كل حرف منها ..

ويبدو أن (فؤاد) قد شعر بهذا ، إذ إنه عاد يجلس إلى جوارها على الأريكة ، وهو يقول بصوت مختنق مبحوح :

ـ سأشرح لك كل شىء يا بنيتى .

وطوال ربع ساعة تالية ، قصَّ عليها القصة كلها ..

وأنصتت إليه هى فى صمت وانتباه كاملين ، دون أن تقاطعه بحرف واحد ، أو تخفض عينيها عن عينيه ، وجسدها كله يرتجف فى انفعال شمل كيانها كله ، من قمة رأسها ، وحتى أخمص قدميها ، وعقلها يشارك قلبها محاولته المستميتة ، لتصديق كل حرف تسمعه ..

وعندما انتهى من روايته ، خيم على المكان صمت رهيب ..

صمت لم يقطعه أحدهما بحرف واحد ، طوال دقيقة كاملة ، وإن خُيِّل إليهما أن نبض قلبيهما قد تحولَّ إلى طبول قوية ، تدق فى الدنيا كلها ..

ثم فجأة ، قطعت (دينا) ذلك الصمت ، وهى تقول فى ضراعة :

ـ عمى .. دعنى أحمله .

مال نحوها فى دهشة ، قائلاً :

ـ ماذا ؟!

تشبَّثت به فى ضراعة ، هاتفة :

ـ أرجوك يا عمى .. دعنى أنا أحمله .. خذوا تلك البويضة منى .. اغرزوا فيها خلية (عماد) ، ثم ازرعوها فى رحمى .. دعه ينمو داخلى .. دعنى أحتويه وأنجبه بنفسى .

اتسعت عيناه فى ارتياع ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ ماذا تقولين يا (دينا) ؟!

عادت تبكى فى مرارة ، هاتفة :

ـ أرجوك يا عمى .. لم تعد لى رغبة فى الدنيا سوى هذه .. ما دمت لم أحظ به زوجًا ، فلأحمل ابنه وأنجبه وأربيه .

هبَّ من مكانه ، صائحًا :

ـ هل جننت ؟! ألا تدركين ما تقولينه ؟! كيف يمكنك أن تدمِّرى حياتك بهذه الوسيلة ؟! كيف ستواجهين المجتمع ؟! بِمَ ستفسرين الحمل والإنجاب ؟! ألا تدركين ما سيصنعه بك الناس ؟!

هتفت :

ـ كل هذا لا يعنينى .

صاح بها :

ـ إنهم سيمزقونك إربًا .. لن يرحمك أحد ، حتى والدك ووالدتك .. الجميع سيتهمونك باتهامات بشعة حقيرة .

قالت فى إصرار :

ـ لن أهتم باتهاماتهم .

صاح :

ـ وماذا عنه ؟!

سألته فى قلق :

ـ عن من ؟!

صاح ملوِّحًا بذراعه كلها :

ـ عن (عماد) .. أعنى النسخة التى سننتجها من خليته .. كيف سيواجه الناس فى المستقبل ؟! كيف سيحيا ، والكل يعتبره ابن سفاح ؟! هل سيحتمل هذا العار ؟!

امتقع وجهها ، وهى تتراجع قائلة :

ـ ربَاه ! لم أفكِّر فى هذا قط .

تابع فى عصبية :

ـ ثم إنه لم يمكنك استيعاب السبب الحقيقى لكل هذا المشروع .. لم تفهمى أن هدفى الحقيقى ليس استعادة (عماد) فحسب ، وإنما الحصول أيضًا على وريث ، يرث كل هذه الملايين .. وريث من صلبى .

ازداد امتقاع وجهها بضع لحظات ، وزاغت عيناها وسط وجهها النحيل ، وكأنها تبحث عن حل لهذه المشكلة ، قبل أن تهتف فجأة فى لهفة :

ـ عندى حل لهذه المشكلة .

سألها فى لهفة :

ـ وما هو ؟!

اندفعت نحوه ، وأمسكت يده فى قوة ، قائلة :

ـ أن نتزوج .

انتفض جسده فى قوة ، وهو يهتف فى هلع :

ـ نتزوَّج ؟!

أجابته فى لهفة وانفعال :

ـ هذا هو الحل المنطقى .. عندما نتزوَّج ، وأحمل أنا (عماد) الثانى فى أحشائى ، وأنجبه ، سيصبح قانونًا وريثك الوحيد .

تراجع عنها ، هاتفًا :

ـ هل جننت يا (دينا) ؟! كيف يمكن أن أتزوَّجك ، وأنت بمثابة ابنتى ؟! لقد كنت خطيبة ابنى (رحمه اللّه) ، فماذا سيقول الناس ؟!

صرخت فى غضب :

ـ الناس .. الناس .. الكل يتحدَّث عن الناس وأقوالهم ،

وردود أفعالهم !! ماذا يعنينا من كل هذا ؟! فليقل الناس ما يقولونه ، وليذهبوا كلهم إلى الجحيم .. لقد أحببت (عماد) ولم يعننا يومًا كلام الناس ؛ لأننا كنا نؤمن بأن لنا الحق فى أن نفعل ما نقتنع ونؤمن به ، حتى ولو رفضه العالم كله .

ثم استعادت لهفتها وانفعالها بغتة ، وهى تستطرد :

ـ دعنا نتزوَّج ، دون أن نبالى بكلام الناس .

وانفجرت فجأة فى بكاء حار ، مضيفة :

ـ أرجوك .. لا تحرمنى من هذه الفرصة أبدًا .. أرجوك .

ذهب غضبه كله مع دموعها ، وحل محلَّه تعاطف مشفق ، وهو يتطلَّع إليها ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ ماذا سيظن بى والداك ؟!

انتعش الأمل فى قلبها ، وهى تقول فى لهفة :

ـ أترك أمرهما لى .

هزَّ رأسه ، مغمغمًا :

ـ وماذا عن سمعتى وعملى ؟!

قالت فى لهفة :

ـ ما من مخلوق ، فى عالم الاقتصاد كله ، يمكن أن ينطق بكلمة واحدة ، فى حق (فؤاد صالح) ، أكبر وأنزه رجل أعمال ، فى العالم العربى كله .. ربما استنكروا الأمر فى البداية ، بسبب خطبتى السابقة لـ (عماد) ، أو بسبب فارق السن

الكبير بيننا ، إلا أنهم لن يلبثوا أن يتقبَّلوا الأمر الواقع ، ويتعايشوا معه ، وتمضى بهم الحياة ، وينسوا الموقف كله .

وأمسكت يده فى قوة ، مضيفة :

ـ وما سيتبقَّى هو أنت ، وأنا ، و ...

ارتجف صوتها ، وهى تكمل :

ـ و (عماد) .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحاول استيعاب ذلك الموقف ..

أهذا ممكن ؟!

هل يتزوَّج (دينا) ؟!

هل ؟!

انتزعته قبضة باردة بغتة من أفكاره ، فانتفض جسده فى عنف ، وهو يهتف :

ـ لا .. هذا لا يمكن أبدًا .

هتفت فى ألم :

ـ ولماذا ؟!

أجابها فى حدة :

ـ لا يمكن أن أتزوَّجك ، وأنت تحملين حفيدى فى أعماقك .

اتسعت عيناها ، وهى تهتف :

ـ حفيدك ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .. ذلك الجنين ، الذى سيأتى من خلية (عماد) ، يعدّ بمثابة ابنه ، ومن المستحيل أن تحملى ابن (عماد) ، وتكونى زوجتى فى الوقت ذاته .. هذا مخالف لكل الشرائع السماوية .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وترنّحت فى وقفتها ، حتى خُيل إليه أنها ستهوى فاقدة الوعى ، فأسرع يلتقطها بين ذراعيه ، ويعيدها إلى الأريكة ، قائلاً :

ـ تماسكى يا (دينا) .. تماسكى يا بنيتى .. العالم لم ينته بعد .

هزّت رأسها فى مرارة ، قائلة :

ـ لا يمكننى أن أحتمل هذه الصدمة الجديدة .. لقد انتعش الأمل فى قلبى ، وتصوّرت أننى سأحتضن (عماد) مرة أخرى ، وأضمه إلىّ .. تصوّرت أننى سأرعى هذا الصغير ، وأربيه ، وأشاهده ينمو يومًا بعد يوم ، كما حدث مع (عماد) ، منذ ربع قرن مضى .. يا إلهى كم تمنيت أن أطعمه بيدى .. أن أعلمه وألقنه كل ما كان يحبه (عماد) ويهواه ، و ...

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدّق فيها ، مع استطرادتها فى الحديث عما تمنت أن تفعله مع الصغير المنتظر ..

وعادت تلك الفكرة المجنونة تتصاعد فى أعماقه ..

إنها بالفعل أفضل من يمكنه رعاية الصغير ..

لقد أحبّت (عماد) ..

وفهمت كل طباعه وميوله ..

هى وحدها قادرة على تحقيق العاملين المتبقيين لتنشئة الصغير ، بعد عامل الوراثة ..

البيئة ..

والتفاعل مع البيئة ..

وفى هذه المرة تغيّرت نظرته إلى الأمور ..

وإليها ..

كانت دموعها تنهال فى غزارة ، عندما تطلّع إليها طويلاً ، ثم نهض إلى الواجهة الزجاجية لمكتبه ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يتطلّع عبرها فى شرود وتفكير ، قبل أن يحسم أمره ، ويقول فى حزم :

ـ أنت على حق يا (دينا) .. أفضل ما نفعله هو أن نتزوّج .

خفق قلبها فى قوة ، وهى تلتفت إليه فى لهفة ، فاستدار إليها ، مستطردًا :

ـ ولكنك لن تنجبى وريثى .

سألته فى حيرة متوترة :

ـ ماذا تعنى ؟!

التفت إليها بجسده كله ، مجيبًا :

ـ أعنى أن هذا ما يحتمه المنطق والعقل .. أنت لا يمكنك حمل نسخة من (عماد) ، ولكنك تستطيعين تربيته والعناية به .. بل ربما كنت أفضل من يمكن أن يفعل هذا .. لا بد أن ندبِّر الأمر إذن .. فلنترك لتلك السويسرية مهمة الحمل والإنجاب ، وبعد أن تلد ، ويصبح الطفل حقيقة واقعة ، سنعيده إلى هنا ، ونبلغ الجميع أنك أنت أنجبته ، وستحمل شهادة ميلاده اسمك ، فى خانة الأم ، واسمى فى خانة الأب ..

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

. ـ وهكذا سيصبح (عماد) الثانى وريثى رسميًا وقانونيًا .

اتسعت عيناها لحظة ، وهى تستعيد ما قاله ، قبل أن يسترخى جسدها كله فى ارتياح ، وتسيل دموعها مرة أخرى على وجنتيها ، متمتمة :

ـ حمدًا للَّه .. حمدًا للَّه ..

وكان هذا يعنى أن الأمور تتعقَّد أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

★ ★ ★

« تتزوجين من ؟! »

قفزت أم (دينا) من مقعدها ذاهلة مستنكرة ، وهى تصرخ بالعبارة فى وجه ابنتها ، التى أجابت فى إصرار شديد :

ـ (فؤاد) بك يا أمى .. سأتزوّج (فؤاد بك صالح) .

اتسعت عينا والدها عن آخرهما ، وهو يتساءل :

ـ (فؤاد صالح) ، والد المرحوم (عماد) .

أجابته :

ـ هو نفسه يا أبى .

صرخت أمها فى وجهها :

ـ لقد جننت ..لا ريب أنك كذلك .. لا بد من عرضك على طبيب نفسى .. سأتصل بالدكتور (عادل) على الفور .

قالت (دينا) فى عناد وإصرار :

ـ لست مجنونة يا أمى ، وصراخك هذا لن يجدى شيئًا .. لقد فكّرت فى الأمر جيدًا ، بكامل وعيى وإدراكى ، ووجدت أن (فؤاد صالح) هو أفضل زوج لى .

زاغت عينا والدها ، وهو يقول فى ارتياع :

ـ ولكنه فى مثل عمرى تقريبًا يا (دينا) .

أجابته فى سرعة :

ـ أعلم هذا يا أبى ، ولكنه الرجل الذى أحببته .

صرخت الأم :

ـ ألم أقل لك ؟! لقد جنّت تمامًا .

أشار إليها الأب فى صرامة ، ثم اتجه إلى ابنته ، وأحاط كتفيها بذراعه فى حنان ، وهو يقول :

ـ اسمعى يا (دينا) .. كلنا يا حبيبتى نعلم أنك كنت غارقة فى حب (عماد) حتى النخاع ، ولكن هذا لا يعنى أن تتزوّجى والده بعد وفاته .. هذا لن يعيد إليك حب (عماد) أبدًا .

تطلّعت إليه لحظة فى صمت ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ إنه قرارى الأخير يا أبى .

رفع يده عن كتفها بحركة حادة ، وهو يهتف :

ـ يبدو أن أمك على حق .. لقد جننت تمامًا .

واندفع نحو الهاتف ، واختطف سمّاعته ، مستطردًا :

ـ من حسن الحظ أن (فؤاد) رجل عاقل رصين ، ولم يجنّ مثلك ، و ...

قاطعته (دينا) :

ـ إنها فكرته .

اتسعت عينا الأم فى ذهول ، فى حين انتفض جسد الأب فى عنف ، وهو يقول :

ـ فكرته ؟!

أجابت فى حزم :

ـ نعم .. هو عرض علىّ الزواج ، وأنا وافقت على الفور ، وسواء وافقتما أم رفضتما ، فسأتزوّجه فى نهاية الشهر .

انهارت أمها على الأريكة ، مردّدة :

ـ فى نهاية الشهر .

أجابتها فى صرامة :

ـ نعم يا أمى .. لقد أعددنا لكل شىء عدته .. سنتزوَّج فى نهاية الشهر ، ونسافر معًا إلى (سويسرا) ..

ارتجفت الكلمات على شفتى والدها ، وهو يقول :

ـ يبدو أنكما قد أعددتما كل شىء .

أجابت فى حزم :

ـ بالضبط .. لقد أعددنا كل شىء .

وشرد بصرها مع كلماتها ، وهى تكرِّر :

ـ كل شىء .

حدَّقت أمها فى وجهها بضع لحظات ، غير مصدِّقة ما تراه وتسمعه ، ثم لم تلبث أن أخفت وجهها بين كفيها ، وانخرطت فى بكاء حار ، فى حين قاوم والدها دموعه ، وهو يقول :

ـ المرء لا يملك ناصية مقاديره أبدًا يا (دينا) .. حتى ولو تصوَّرت أنكما قد أعددتما كل شىء ، فهذا لا يعنى أبدًا أن تسير الأمور كما تريدان .

حاولت أن تهرب من هذا الحوار بالتحديد ، وهى تشيح بوجهها ، قائلة :

ـ (فؤاد) سيدفع مائة ألف جنيه مهرًا لى ، و ...

قاطعها والدها فى حدة :

ـ لا تتحدَّثى عن النقود .

ولوَّح بيده فى وجهها ، مستطردًا فى غضب :

ـ قولى إنك ستتزوجينه لأنك تريدين هذا ، ولا تتحدَّثى عن ثروته ونقوده .. إنها لم تكن السبب فى قبولنا زواجك من (عماد) (رحمه اللّه) ، ولن تكون أبدًا السبب فى قبولنا زواجك من والده .. اذهبى وتزوجيه يا (دينا) ، ولكن لا تنتظرى منا أبدًا مباركة هذا الزواج أو حتى قبوله .

حاولت مقاومة دموعها طويلاً ، إلا أنها لم تلبث أن انفجرت باكية ، وهى تقول :

ـ كل ما أتمناه هو أن تتفهَّموا موقفى .

وسالت دموعها فى غزارة أكثر ، وهى تضيف :

ـ يومًا .

ثم واصلت البكاء ..

بدموع كالحمم ..

أو أكثر حرارة ..

★ ★ ★

المجتمع كله تحدَّث عن زواج (دينا) من (فؤاد صالح) ..

الكل استقبل الخبر فى دهشة عارمة ..

وفى استنكار شديد ..

الكل استهجن أن يتزوَّج الملياردير من خطيبة ابنه السابقة ..

والكل رفض فارق السن الضخم بينهما ..

وربما كان توقّع هذا هو ما دفع (فؤاد) إلى إتمام الزواج فى هدوء ، دون حفل ضخم ، أو مظاهر بذخ مبالغة ، كتلك التى صاحبت الانفتاح ، فى تلك الفترة من الزمن ..

ولكن الحديث والغضب والاستنكار لم يستغرق سوى أسبوع واحد ، ثم استوعب الناس الموقف ، وخضعوا للواقع ، واستسلموا للحقيقة ، وألقوا الأمر كله خلف ظهورهم ، لينشغلوا بقضية جديدة ..

تمامًا كما توقّعت (دينا) منذ البداية ..

وحدهما (فؤاد) و (دينا) كانا يعلمان السبب الحقيقى لزواجهما ..

ووحدهما جلسا ينتظران الأخبار من (سويسرا) ..

كان الدكتور (حسن) يبلغهما أوّلاً فأوّلاً ، بكل التطورات التى تواجه المشروع ..

ولم تكن التطورات مرضية دائمًا ..

فمحاولة انتزاع الأنوية الخلوية السليمة لم تنجح إلا مع خمس حالات فحسب ..

وعندما بدأت عملية التلقيح الصناعى ، فشلت ثلاث بويضات فى التفاعل مع الخلية ، عند زرعها داخلها ، على الرغم من المحاولات التى تم بذلها ، لتنبيه جهاز خاص فى

(سيتوبلازم)(*) البويضة ، ليحثّها على الانقسام ، كما لو كانت مخصّبة بنطفة بشرية طبيعية ..

لقد رفضت البويضات الانقسام ، أو التفاعل ، مع الخلية البشرية تمامًا ، كما لو أنها تدرك أن هذه الخلية لا تناسب العمل المنوط بها القيام به ..

وتبقّى الأمل فى الخليتين الباقيتين ، اللتين استوعبتا ذلك الموقف الجديد ، وبدأتا عملية الانقسام بالفعل ..

الأمل الأخير ..

كان من المحتم ، حتى تكتمل العملية ، أن ينشأ الجنين البشرى ، الذى يسمح له بالتضاعف داخل أنبوبة اختبار ، حتى يبلغ مرحلة من العمر ، تسمح بزرعه فى رحم بشرى ..

وهذا يعنى أن تواصل الخلية انقسامها ونموّها ..

وهذا ما راح الجميع يترقبونه بكل اللهفة والقلق والتوتر ..

(فؤاد) ..

و (دينا) ..

(*) السيتوبلازم : هو البروتوبلازم المحيط بالنواة فى الخلية ، ووظائفه تتم تحت سيطرة النواة ، وهو يحوى مختلف أعضاء الخلية ، مثل : (الميتاكوندريا) ، وأجسام (جولجى) ، و(السنتروسوم) ، والفجوات الغذائية ، والشبكة الإندوبلازمية ، و(الريبوسومات) ، وتعتبر الفجوات ضمن أعضاء الخلية ، وهى عبارة عن فقاقيع مملوءة بالسائل الخلوى ، وتقوم فى الحيوانات وحيدة الخلية بعملية هضم المواد الغذائية .

والدكتور (حسن) ..

وحتى الدكتور (هنريخ) ..

ولأن الإنسان كائن متناقض بطبعه ، فقد راح (فؤاد) و(دينا) يصليان لله (سبحانه وتعالى) أن ينجح المشروع ، على الرغم من معرفتهما بما ستنطوى عليه عملية الحمل والولادة من مخالفة صريحة لكل الأديان والشرائع السماوية ؛ لأن تلك المتطوّعة السويسرية ستحمل جنين شخص لا تربطها به أية صلة ..

بل هو فى الواقع شخص مات بالفعل ، قبل أن تحمل هى ابنه بعدة أشهر ..

ولكن يبدو أن الأمر كان بالنسبة إليها بالفعل ، مجرّد صفقة عمل ..

وطال الانتظار لشهرين آخرين ..

حتى كان اليوم الأخير من عام ١٩٧٩م ..

ففى ذلك اليوم ، عاد (فؤاد) إلى منزله مبكرًا ، على غير العادة ، واندفع إلى حجرة نوم (دينا) ، وهو يهتف :

ـ أخيرًا يا (دينا) .. أخيرًا .

كان يلوّح ببرقية فى يده ، فقفزت تختطفها منه بكل اللهفة ، والتهمت عباراتها الانجليزية القليلة بكل توتر وانفعال كيانها كله ..

« سيّدى .. اليوم .. وفى تمام السابعة والنصف صباحًا ، بتوقيت (زيورخ) ، تم زرع الجنين فى رحم المتطوّعة السويسرية .. مبروك .. الدكتور (حسن فكرى) .. »

ولم تصدّق (دينا) عينيها ..

بل ولم تحتمل الموقف كله ..

لذا فقد سقطت على فراشها ، وانفجرت ببكاء كالسيل ، وهى تهتف :

ـ أخيرًا .. أخيرًا ..

كانت و (فؤاد) يتصوّران أن مشكلتهما كلها قد انتهت ..

ولم يتصوّر أحدهما أنها كانت البداية ..

البداية الحقيقية .

★ ★ ★

٥ـ البـــــديل ..

ستة أشهر كاملة ، قضتها (دينا) فى (سويسرا) ، تتابع حمل تلك المتطوّعة هناك لحظة فلحظة ، وتقيم معها فى منزل واحد ..

الكل فى (القاهرة) كان يتصوّر أن (دينا) تقضى أشهر حملها فى مصحة خاصة فى (زيورخ) ، حسب رغبة زوجها ، الذى ينتظر وريثه منها بلهفة بالغة ، لم يحاول إخفاءها عن أحد ، وبالذات عن شقيقه (سمير) ، الذى أعاده إلى عمله فى مؤسساته ، بعد فترة انقطاع وخلاف طويلة ..

ومن ناحيتها ، كانت (دينا) ترسل إلى أمها خطابات منتظمة ، تصف فيها كل ما تمرّ به تلك السويسرية ، وكأنه يحدث معها هى ..

وكم عانت الأم المسكينة ، عندما كانت السويسرية تصاب بنوبة قىء حادة ، أو تعانى اضطرابات الهضم ، أو آلام الساقين ..

وأخيرًا حانت لحظة الوضع ..

وسافر (فؤاد) بنفسه شخصيًا إلى (زيورخ) ، ليحضر مولد حفيده ، والنسخة الجديدة من ابنه الراحل ..

وفى مطار (زيورخ) ، استقبله الدكتور (حسن) بابتسامة كبيرة ، وصافحه فى حرارة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا يا (فؤاد) بك .. مبروك .. ما هى إلا ساعات ، وتستقبل نسخة طبق الأصل من ابنك الراحل .

سأله (فؤاد) بلهفة ، وهما يستقلاّن السيارة ، التى ستحملهما إلى المستشفى :

ـ أأنت واثق من أن كل شىء يسير على ما يرام ؟!

ربّت الدكتور (حسن) على كتفه ، قائلاً :

ـ اطمئن يا (فؤاد) بك .. كل شىء يسير وفقًا للخطة .

أغمض (فؤاد) عينيه ، متمتمًا :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله ..

ثم عاد يفتحهما ، وهو يربّت على حقيبته ، قائلاً فى لهفة :

ـ هل تعلم يا دكتور (حسن) ؟! لقد أحضرت معى كل الصور ، التى تم التقاطها لـ (عماد) عند مولده .

ارتفع حاجبا الدكتور (حسن) ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

أجابه فى سعادة :

ـ بالتأكيد .. أريد أن أتأكد من أنه نسخة طبق الأصل منه .

أومأ الدكتور (حسن) برأسه متفهمًا ، وهو يغمغم :

ـ عظيم .. عظيم .. هذا سيفيدنا كثيرًا بالتأكيد .

لم يتبادلا الكثير من الحديث بعدها ، حتى وصلت السيارة إلى المستشفى ، التى دلف إليها (فؤاد) بمزيج من اللهفة والرهبة ، وسار فى ممراتها وقلبه يخفق فى قوة وقلق ، و ...

« (فؤاد) .. »

اخترق صوت (دينا) أذنيه ، بكل ما يحمله من لهفة وسعادة ، فالتفت إليها بكيانه كله ، وهو يهتف :

ـ (دينا) .. هل ..

قبل أن يتم عبارته ، كانت تقفز متعلقة بعنقه ، وهى تهتف :

ـ لقد عاد يا (فؤاد) .. (عماد) عاد إلينا .

انتفض قلب (فؤاد) بين ضلوعه فى عنف ، وتصلبت عضلاته كلها ، وارتجفت شفتاه من فرط الانفعال ، وهو يسأل :

ـ هل .. هل أنجبت ؟!

أجابته بسعادة غامرة :

ـ نعم .. أنجبت ذكرًا كامل النمو ، فى صحة جيدة للغاية ، يزن ثلاثة كيلو جرامات تقريبًا ، ولقد تساءلوا عن الاسم الذى سنمنحه إياه .

هتف :

ـ (عماد) .

طبعت قبلة على وجنته ، قائلة :

ـ هذا ما أخبرتهم به .

ارتجف كيانه كله هذه المرة ، وهو يتمتم :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ثم اغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يقول فى لهفة :

ـ أين هو ؟! أريد أن أراه .

جذبته من يده ، وهى تعدو عبر الممر ، هاتفة :

ـ بالتأكيد .. إنهم يضعونه بالقرب من الجدار الزجاجى لحجرة المواليد .. تعال .. سأريك إياه .

وسالت دموعها غزيرة ، عندما بلغوا المكان ، وهى تشير إلى الطفل ، قائلة فى سعادة :

ـ ها هو ذا .

حدق فيه (فؤاد) فى انفعال ، قبل أن يفتح حقيبته بأصابع مرتجفة ، ويلتقط منها أول صورة تم التقاطها لـ (عماد) عند مولده ، وراح ينقل بصره بينها وبين ذلك القادم الجديدة ، ثم سالت الدموع من عينيه ، وهو يغمغم :

ـ لست أدرى كيف يمكننى أن أشكرك يا دكتور (حسن) .. لست أدرى كيف يمكننى هذا أبدا .

ولم تفهم (دينا) سر انفعاله الزائد هذا ، إلا عندما ألقت نظرة على صورة (عماد) ، وقارنتها بوجه (عماد) الثانى فى مهده ..

فبلا أدنى اختلاف ، ودون أدنى شك ، كان الاثنان نسخة طبق الأصل من بعضهما ..

وكان هذا يعنى أن مشروع الاستنساخ قد نجح ..

وإلى أقصى حد ..

★ ★ ★

لم تشهد (القاهرة) الجديدة قط احتفالاً بمقدم مولود جديد ، كما حدث مع (عماد صالح) الثانى ..

فلم يكد (فؤاد) يعود إلى القاهرة ، بصحبة زوجته (دينا) ، وهى تضمّ إليها (عماد) الصغير ، على نحو يوحى بأنها تخشى أن تنتزعه الدنيا منها ، حتى بدأت (مروة) فى إرسال الدعوات للجميع ، لحضور الحفل ، الذى أقامه الملياردير الكبير ، احتفالاً بمولد وريثه ..

وعلى عكس ما حدث عند زواج (فؤاد) و(دينا) ، استقبل الجميع هذا الخبر بفرحة عارمة ، وانهالت تهانيهم على الاثنين ، على نحو يعكس حب الناس واحترامهم البالغ ..

ولقد تأثَّر الكل بالتأكيد ، عندما علموا أن المولود الجديد سيحمل نفس اسم الابن الراحل ، الذى افتقده الجميع ..

اسم (عماد) ..

وفى ذلك الحفل الضخم ، الذى أقيم فى أكبر فنادق (القاهرة) ، وأحياه كبار نجوم الطرب ، فى ذلك الحين ، كانت تتصدَّر المكان صورة كبيرة لـ (عماد) ، وكأنه يشارك الحاضرين فى الاحتفال بمولد الوريث الجديد لآل (صالح) ..

الكل حضر الحفل ..

والكل بدا فى غاية الفرحة والسعادة ..

وعلى رأس الجميع ، كان والد (دينا) ووالدتها ..

وبحب وحنان لا مثيل لهما ، أصرَّت الأم على حمل الصغير

طوال الحفل ، ودموع الفرح لا تتوقَّف عن الانهمار من عينيها ، وتبليل شفتيها الباسمتين ..

أما الأب ، فقد ضمّته مائدة واحدة مع (فؤاد) وشقيقه (سمير) والدكتور (حسن) ، وبدا شديد التأثُّر ، وهو يقول :

ـ الواقع يا (فؤاد) بك أننى لم أكن موافقًا أو مقتنعًا بهذه الزيجة فى البداية .. لا تؤاخذنى ، ولكننى كأى أب ، كنت أشفق على ابنتى من الزواج برجل فى مثل عمرى .

ابتسم (فؤاد) ، وهو يربِّت على كتفه ، قائلاً :

ـ لا عليك .. يمكننى تفهُّم هذا .

ابتسم الرجل ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ الآن أريد أن أشكرك كثيرًا يا (فؤاد) بك ، فلم أر ابنتى ، فى حياتى كلها ، بمثل هذه الفرحة والسعادة ، حتى إننى أعتقد أن أفضل ما حدث لها ، فى عمرها كله ، هو زواجها منك ..

ضحك الدكتور (حسن) ، قائلاً :

ـ ليس هذا فحسب .. لقد أصبحت أيضًا أم الوريث .

انعقد حاجبا (فؤاد) فى ضيق ، وهو يشيح بوجهه بعيدًا ، فى حين هتف والد (دينا) فى ارتباك :

ـ آه .. ليس هذا ما قصدته أبدًا .. النقود ليست كل شىء .

أما (سمير) ، فلم ينبس ببنت شفة ، وهو يتطلَّع إلى الدكتور (حسن) ، الذى انطلق يضحك فى مرح ، وكأنه الوحيد الذى راقت له عبارته ..

لم يكن يشعر بالارتياح أبدًا لوجود الدكتور (حسن) ضمن المدعوين ، فى حفل استقبال (عماد) الصغير ..

لماذا يدعوه (فؤاد) إلى حفل كهذا ؟!

ما صلته به ؟!

وما صلته بالأمر كله ؟!

ترى هل ..... ؟!

لم يستطع إكمال تساؤله ، حتى فى أعماق عقله ، فنفضه عن كيانه فى قوة ، واعتدل فى مجلسه ، قائلاً بصوت مرتفع ، وكأنه يدارى به كل الشكوك ، التى تعربد فى رأسه :

ـ فلندع الله (سبحانه وتعالى) أن يكون حظ (عماد) الصغير أفضل من حظ قرينه الراحل .

هتف (فؤاد) ، من أعماق قلبه :

ـ يارب .

وقال الدكتور (حسن) فى حماس :

ـ الشىء الذى أثق به ، هو أن شهرته ستفوق شهرة (عماد) رحمه الله حتمًا .

نقل (سمير) بصره بين وجه الدكتور (حسن) ، بعد أن نطق عبارته ، ووجه (فؤاد) ، الذى انعقد حاجباه مرة أخرى ، وكأنما لايروق له حديث الدكتور (حسن) على الاطلاق ، وتساءل فى أعماقه : ترى أى سر يجمع بينهما ؟!

وفى لحظة واحدة ، استعاد عقله تفاصيل ذلك الحديث ،

الذى دار بينه وبين شقيقه ، أمام باب المشرحة ، منذ ما يقرب من عام ونصف العام ، فى حضور الدكتور (حسن) ..

واتقبض قلبه فى قوة ..

ترى أمن الممكن هذا ؟!

أمن المعقول أن يكون (عماد) الصغير هذا هو كائن مستنسخ ، من (عماد) الراحل ؟!

أيمكن أن يحدث هذا بالفعل ؟!

غير معقول ؟!

غير معقول ؟!

حدَّق مرة أخرى فى الدكتور (حسن) ، وعقله يرفض تصديق الفكرة أو استيعابها ..

أما (فؤاد) ، فقد مال على أذن الدكتور (حسن) ، قائلاً فى صرامة :

ـ أريدك فى مكتبى صباح الغد .

كان الدكتور (حسن) جم السعادة ، حتى إنه لم ينتبه إلى تلك الرنة الصارمة ، وهو يهتف فى حماس :

ـ بالتأكيد .

والعجيب أنه ظلَّ على جهله بحقيقة الموقف ، حتى التقى بالملياردير فى مكتبه بالفعل ، صباح اليوم التالى ، ورأى تلك النظرة الصارمة الغاضبة فى عينيه ، وانتبه إلى الأسلوب البارد الجاف ، الذى استقبله به ، فتساءل فى قلق :

ـ ماذا هناك ؟!

أجابه (فؤاد) فى غضب :

ـ حديثك عن شهرة (عماد) الصغير هذا لا يروق لى .

سأله الدكتور (حسن) فى قلق حائر :

ـ ولماذا ؟! الصغير سيصبح بالفعل أشهر طفل فى العالم ، عندما نعلن نجاح مشروعنا ، ونزف للدنيا مولد أوَّل طفل مستنسخ فى التاريخ .

انعقد حاجبا (فؤاد) فى صرامة أكثر ، وهو يقول :

ـ هذا بالتحديد ما طلبت منك مقابلتى من أجله .

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، مستطردًا :

ـ إنك لا تستطيع إعلان هذا الأمر أبدًا .

حدَّق الدكتور (حسن) فيه فى دهشة غامرة ، قبل أن يعدِّل منظاره على أنفه فى ارتباك ، متسائلاً :

ـ ماذا تعنى بالضبط يا (فؤاد) بك ؟! إننى لم أقبل القيام بكل هذا ، إلا من أجل هذه اللحظة بالذات .. لحظة إعلان الكشف ، وتحقيق ما لم يبلغه الآخرون .

هزَّ (فؤاد) رأسه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ مستحيل يا دكتور (حسن) ! مستحيل !

ارتبك الرجل أكثر ، وشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه الملياردير فى حسم :

ـ لإن إعلان هذا الكشف يعنى أن يعلم الجميع أن (عماد) الصغير ليس ابنى .. ليس وريثى الوحيد .

هتف الدكتور (حسن) :

ـ ولكنه ابن ابنك .

أشار (فؤاد) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ وهنا تكمن المشكلة .

ثم عاد يعقد كفيه خلف ظهره ، ويتحرَّك فى حجرته الواسعة ، متابعًا فى توتر :

ـ هذا الأمر معقَّد للغاية ، من الناحية الشرعية ، فأبناء الابن ، الذى يموت قبل والده ، لا يحق لهم أن يرثوا جدهم ، وهذا يعنى أن (عماد) الصغير لن يعتبر وريثًا لى .. صحيح أننى أستطيع أن أوصى له بثلث ثروتى ، وهو الحد الأقصى ، الذى يبيحه الشرع للوصية ، إلا أن هذا سيعنى أن يذهب ثلثا الثروة إلى الآخرين ، وهذا ما لن أسمح به أبدًا .. ناهيك عن الجدل الدينى والقانونى ، الذى سيثار حول الصغير ، وحول شرعية انتمائه إلى ابنى (عماد) وإلىَّ ، وستجد من يهاجمنا بعنف ، ومن يتهمنا بالجنون ، أو الكفر والإلحاد ، ومخالفة شريعة الله (عزَّ وجلَّ) ، وربما رفع بعضهم قضايا مدنية ، لعزل الصغير ، وحرمانه من الميراث .

وتوقَّف فى حزم ، مضيفًا :

ـ لذا فمن المحتم أن يبقى هذا الأمر سرًا بيننا .

اتسعت عينا الدكتور (حسن) عن آخرهما مرة أخرى ، وسقط فكه السفلى فى بلاهة ، وكأنه لم يستوعب هذا الموقف كله ، ثم لم يلبث أن انتفض ، هاتفًا فى حدة :

ـ مستحيل ! مستحيل أن أقبل بهذا !

ثم اندفع يستطرد فى غضب :

ـ ألا تدرك ما فعلناه يا (فؤاد) بك ؟! لقد حطمنا كل القواعد العلمية المعروفة فى عصرنا هذا .. لقد سبقنا عصرنا بجيل كامل على الأقل ، ففى الوقت الذى يبذل فيه العلماء قصارى جهدهم ، لرفع نسبة نجاح إنتاج (أطفال الأنابيب) ، قفزنا نحن قفزة مذهلة ، ونجحنا فى إنتاج وليد جديد ، من خلية بشرية عادية ..

لقد صنعنا أملاً جديدًا لأولئك الذين تصوَّروا أنهم لا يستطيعون الإنجاب أبدًا .. ألا يستحق هذا أن نعلن الكشف ؟!

عاد (فؤاد) إلى مكتبه ، وهو يقول :

ـ لقد عرضت عليك ملابسات الموقف وظروفه ، وأعرض عليك أيضًا مليونى دولار ، ومعمل متكامل لبدء سلسلة جديدة من التجارب هنا ، بشرط ألا تتفوّه بحرف واحد عما فعلناه .

بدا الدكتور (حسن) صارمًا غاضبًا ، وهو يقول :

ـ وماذا لو رفضت الالتزام بهذا ؟!

صمت (فؤاد) لحظة ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم لم يلبث أن مال إلى الأمام ، قائلاً فى صرامة شديدة :

ـ يؤسفنى أنه ليس لديك الخيار .

انتفض جسد الدكتور (حسن) فى انفعال ، وهو يهتف :

ـ (فؤاد) بك .. هل تهدِّدنى ؟!

هزَّ (فؤاد) رأسه نفيًا فى بطء ، وهو يقول :

ـ بل أبلغك بالواقع يا دكتور (حسن) .. إنك لست أوَّل من أتحدَّث إليه فى هذا الشأن .. الدكتور (هنريخ) والدكتور (فريدريش) سبقاك إلى قبول عرضى ، وحصل كل منهما على مليونى دولار بالفعل ، مقابل كتمان الأمر كله .. ولقد قاما بتدمير كل الوثائق والنتائج ، وإذا ما عنَّ لك أن تثير الأمر ، فسينكران ما تقوله تمامًا ، وسأقاضيك أنا بتهمة التشهير .

امتقع وجه الدكتور (حسن) بشدة ، وهو يقول :

ـ أيها الـ ... الـ ...

قاطعه (فؤاد) فى صرامة :

ـ هل ستقبل عرضى أم لا ؟!

ارتجفت شفتا الدكتور (حسن) ، وتهاوى على المقعد المقابل لمكتب (فؤاد) ، وخلع منظاره الطبى ، وراح يمسح دموعه ، مغمغمًا فى مرارة :

ـ جهد عام ونصف يضيع هكذا .

أجابه (فؤاد) فى حزم :

ـ ولماذا تعتبر أنه قد ضاع هكذا ؟! لقد أجريت خلاله التجارب ، واكتسبت الخبرات الكافية ، وستحصل الآن على

مليونى دولار ومعمل جديد .. والأهم من هذا كله هو أنك تعلم الآن أن الفكرة ممكنة التحقيق .. ألا يعد كل هذا نصرًا ؟!

زفر الرجل فى مرارة ، متمتمًا :

ـ من وجهة نظرك .

تراجع (فؤاد) فى مقعده ، قائلاً فى صرامة :

ـ معذرة يا دكتور (حسن) .. ربما لا يروق لك ما أفعله الآن ، ولكن أسلوبى لم يتغير كثيرًا عما كان عليه ، منذ بدأ الأمر .. لقد كنت أبحث عن وريث ، والآن أسعى لحماية وريثى هذا .. أعتقد أن هذا حقى .. أليس كذلك ؟!

ابتسم الدكتور (حسن) فى سخرية مريرة ، وهو يقول :

ـ تحمى وريثك ؟! من الواضح أنك تعتبر المال هو كل شىء يا (فؤاد) بك .

ثم ارتفع صوته ، وهو يقول فى غضب مفاجئ :

ـ ولكنك لا تستطيع شراء كل شىء بنقودك هذه .

أجابه (فؤاد) :

ـ لقد استعدت بها وريثى على الأقل .

اعتدل الدكتور (حسن) ، وعاد ينهض فى عصبية ، وهو يتطلّع إليه مباشرة ، قائلاً :

ـ ربما ساعدتك ملايينك على استعادة وريثك ، ولكن كل أموال الدنيا لن يمكنها شراء لحظة واحدة من قدرك .

اخترقت العبارة قلب (فؤاد) فى عنف ، ولكنه سيطر على مشاعره ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أجبنى يا دكتور (حسن) .. هل ستقبل عرضى أم لا ؟!

انعقد حاجبا الرجل فى توتر بالغ ، وهو يقول :

ـ يبدو أننى مضطر لهذا يا (فؤاد) بك .

ثم أضاف فى مرارة :

ـ ولكننى لن أنسى ما حدث قط .

واستدار يغادر المكتب الفاخر الواسع فى غضب ، فهتف (فؤاد) خلفه :

ـ الشيك سيصلك صباح الغد .

لوّح الدكتور (حسن) بيده فى غضب ، وهو يصفق الباب خلفه فى قوة ، ولكن (فؤاد) لم يبال بهذا ، وهو يلتقط سمّاعة الهاتف ، ويطلب رقم منزله ، ولم يكد يسمع صوت (دينا) ، حتى ارتفع حاجباه فى حنان غامر ، وهو يسألها :

ـ كيف حال (عماد) الصغير اليوم ؟!

ومع كلماتها ، نسى كل حديثه مع الدكتور (حسن) ..

بل نسى الدنيا كلها ..

★ ★ ★

كل شىء تقريبًا تغيرّ فى (مصر) ، خلال السنوات العشر التالية ..

الجماعات الإسلامية المتطرّفة اغتالت الرئيس (أنور السادات) ، يوم احتفاله بذكرى نصر أكتوبر ، وتولّى الرئيس (حسنى مبارك) زعامة (مصر) ، بفكر جديد ، وعهد جديد ..

وانطلقت الدولة بسرعة أكبر نحو الانفتاح والاقتصاد الحر ..
وتضاعفت رءوس الأموال أكثر وأكثر ..
ونشأت طبقات جديدة ، ثرية وفقيرة ..
بل تم إعادة رسم الخريطة الاجتماعية لـ (مصر) بالكامل ..
أما على النطاق الشخصى ، فقد بلغ (فؤاد) الثالثة والستين من عمره ، وازدهرت أعماله على نحو غير مسبوق ، حتى صار واحدًا من أغنى أغنياء المنطقة ..
و(دينا) لم تنجب من (فؤاد) أى أطفال ، واكتفت بتربية (عماد) ، الذى أغرقته فى حبها وحنانها ورعايتها ، وكأنها قد وهبت حياتها لتنشئته فحسب ..
ولم يبخل (فؤاد) على وريثه بأى شىء ، مهما بلغ قدره ..
لقد صنع له حديقة أطفال خاصة ، بها كل ما يمكن تخيله ، من الألعاب المعروفة فى ذلك الزمن ، وألحق بقصره الجديد وحدة رعاية طبية متكاملة ، لفحص الصغير والعناية به طوال الوقت ..
أما الدكتور (حسن) ، فقد حصل على المليونى دولار ، إلا أنه لم يدخل ذلك المعمل ، الذى أعدّه له (فؤاد) مرة واحدة ..
لقد ترك (مصر) كلها ، وهاجر بثروته إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، على أمل تحقيق حلمه هناك ..
ولكنه كان على حق ..
أموال الدنيا كلها لا يمكن أن تشترى لحظة واحدة من قدر الإنسان ..

فبعد أن استقَر به المقام هناك ، وأنشأ لنفسه معملاً محدودًا ، وبدأ اتصالاته بأحد مراكز الأبحاث الخلوية بالفعل ، استوقفه اثنان من اللصوص ، فى ليلة هادئة من ليالى (نيويورك) ، واستوليا على نقوده ، ثم لم يكتفيا بهذا ، وإنما أطلقا النار عليه ، وفرا هاربين ..
وانتهت حياة عالم الخلايا العبقرى ، فى شارع جانبى صغير ، فى قلب (نيويورك) ..
والمدهش أن (فؤاد) لم يعلم بالأمر ، إلا بعد مضى عام كامل على مصرع الدكتور (حسن) ..
وبالمصادفة البحتة ..
والواقع أنه لم يهتمّ بالخبر كثيرًا ..
بل يمكن القول بأنه قد شعر بالارتياح ..
الكثير من الارتياح ...
هذا لأن مصرع الدكتور (حسن) يضمن كتمان السر إلى الأبد ..
ويضمن أن يظلّ (عماد) الصغير دائمًا هو الوريث الرسمى ..
والوحيد ...
وفى عيد ميلاده العاشر ، أقام له (فؤاد) حفلاً كبيرًا ، ينافس حفل مولده الأوّل ، ودعا إليه العديد من رجال الأعمال والاقتصاد والسياسة ، وكل العاملين فى مؤسساته تقريبًا ..
ولكن شيئًا واحدًا أثار قلقه وتوتره حينذاك ، وهو يراقب (عماد) الصغير ، فى أثناء الحفل ..

ولأن شقيقه (سمير) كان يقف إلى جواره ، فقد نقل قلقه هذا إلى لسانه فى تلقائيه ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! إنه لم يعد يشبهه .

ابتسم (سمير) ، مغمغمًا :

ـ هذا أمر طبيعى .

هزَّ (فؤاد) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ ليس أمرًا طبيعيًا كما تتصوَّر .. إننى أتابع تطوّره طوال الوقت ، وفيما مضى ، خلال سنوات عمره السبع الأولى ، كان يشبه (عماد) تمام الشبه ، أما الآن ...

لم يحاول إتمام عبارته ، وهو يخرج من جيبه صورة لابنه الراحل (عماد) ، فى أثناء الاحتفال بعيد مولده العاشر أيضًا ، وراح يقارنها بـ (عماد) الصغير ، الذى يلعب مع أقرانه فى الحديقة ، فابتسم (سمير) مشفقًا ، وهو يغمغم :

ـ ليس من الضرورة أن يتشابها .

قال (فؤاد) بسرعة :

ـ بل كان من المحتم هذا .

ثم استدرك فى توتر :

ـ أعنى لأنهما شقيقان .

تطلَّع (سمير) إلى الصورة ، ثم نقل بصره إلى (عماد) الصغير ، قائلاً :

ـ الوراثة ، والبيئة ، والتفاعل مع البيئة .

التفت إليه (فؤاد) فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار (سمير) إلى (عماد) الصغير ، مجيبًا :

ـ أعنى أن ما تراه الآن هو تأثير البيئة ، الذى أشار إليه الدكتور (حسن) رحمه الله .

قال (فؤاد) فى عصبية :

ـ لست أفهم فيم تتحدَّث .

أجابه بابتسامة مشفقة :

ـ بل تفهم جيدًا يا (فؤاد) .. وأنا أيضًا أفهم منذ عشر سنوات ، منذ شاهدت الدكتور (حسن) فى حفل استقبال (عماد) الصغير ..

انعقد حاجبا (فؤاد) فى توتر بالغ ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هراء .

تابع (سمير) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ فى البداية شككت فى الأمر ، ثم لم ألبث أن أيقنت من حقيقة شكوكى هذه ، عندما فوجئت بك تنفق ستة ملايين دولار دفعة واحدة ، لصالح الدكتور (حسن) ، واثنين من الأطباء الأوربيين ، ولم يكن من العسير عندئذ أن أفهم ، خاصة وقد كنت المدير المالى للشركة آنذاك .

غمغم (فؤاد) فى عصبية :

ـ إذن فقد كنت تعلم .

أجابه (سمير) فى سرعة :

ـ ولم أحاول الإشارة إلى هذا قط ، وإن جعلنى الفهم أستوعب الكثير مما حدث ، ومما لم أفهمه فى حينه .

سأله متوترًا :

ـ مثل ماذا ؟!

أجابه فى حذر :

ـ زواجك من (دينا) مثلاً .

أشاح (فؤاد) برأسه ، قائلاً فى حدة :

ـ أمورى الشخصية ليست من شأنك .

أجابه (سمير) فى حسم :

ـ بالتأكيد .

ثم تردَّد لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ شىء واحد أرغب فى معرفته ، طوال كل هذه السنين .. هل (دينا) هى التى أنجبت الصغير بالفعل ؟!

صمت (فؤاد) لحظة ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ـ كلاَّ .

تنهد (سمير) فى ارتياح ، مغمغمًا :

ـ حمدًا للّه .

قال (فؤاد) فى غضب صارم :

ـ ولكن لن يمكنك إثبات هذا قط .

ابتسم (سمير) ابتسامة عتاب مشفقة ، مغمغمًا :

ـ ومن سيحاول إثباته ؟

والتفت إلى شقيقه ، مكملاً فى أسى :

ـ صدقنى يا (فؤاد) .. صدقنى يا شقيقى الوحيد .. أموالك هذه لا تهمنى قط .. بارك لك اللّه فيها ، وزادك منها الكثير .. لست طامعًا فى قرش واحد منها .. صدقنى .. كل ما أحمله لك هو الحب .. حب الشقيق لشقيقه فحسب ، وكل ما أتمناه لك هو الخير ، كل الخير .

سأله (فؤاد) فى عصبية :

ـ وماذا عن (عماد) الصغير ؟!

أجابه بسرعة :

ـ أنا أوَّل من سيعترف بأنه وريثك الوحيد .

ثم تراجع ، مستدركًا :

ـ ولكن ...

هتف به (فؤاد) :

ـ ولكن ماذا ؟!

عاد (سمير) يشير إلى الصغير ، مجيبًا :

ـ إنكم تدللونه كثيرًا ، حتى يكاد يفسد .

غمغم (فؤاد) :

ـ إنه وريثى الوحيد .

أشار (سمير) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ هذا لا يعنى أن يتم تدليله إلى هذا الحد .. هل تدرك لماذا لاحظت أن هيئته تختلف بعض الشىء عن صورة (عماد) ،

عندما كان فى مثل سنه ؟! هذا لأن (عماد) الصغير أكثر وزنا ، وأقل رصانة واهتمامًا .. تدليلكم له صنع منه مخلوقًا أنانيًا ، عصبيًا ، ذاتيًا ، لاهم له فى الدنيا سوى تنفيذ رغباته ، وتحقيق متطلباته ، دون النظر إلى أية عوامل أخرى ، أما (عماد) ، رحمه الله ، فعندما كان فى العاشرة ، كنت أنت تعمل ليل نهار ، ولا تجد الوقت لتدليله ، ومربيته كانت تحرص على تلقينه كل المبادئ الصالحة والأخلاقيات الحميدة .. اختلاف التربية هنا هو البيئة التى أتحدث عنها .. البيئة التى تختلف تمامًا عن البيئة التى تربى فيها (عماد) .

تسلل القلق إلى أعماق (فؤاد) ، مع كلمات شقيقه المنطقية ، فتمتم فى عصبية :

ـ هذا أمر يمكن تدبيره .

هز (سمير) رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ المشكلة أنك لا تستطيع أن تحكم هذا الأمر قط ، فالبيئة حتمًا تتغير ، من زمن إلى آخر .. العصر نفسه يختلف .. انظر إلى (عماد) الصغير مثلاً ، وهو يلهو بألعاب الفيديو الحديثة .. إن هذا سيكسبه حتمًا مهارات جديدة ، وسيصنع فى داخله تطورات ، لم تكن لتحدث أبدًا مع (عماد) الأصلى .. إنها حتمية التغيير يا شقيقى .. لا يمكنك أن تصنع نسخة متكاملة من شخص ما أبدًا مهما حاولت .. لا بد أن يأتى الشخص الجديد بسمات جديدة ، وطبيعة جديدة ، وروح مواكبة للعصر الذى ينشأ فيه .

قال (فؤاد) فى حدة :

ـ الأمر ليس بالخطورة التى تتصورها .. سأجعل (عماد) الصغير يخضع لنظام غذائى محكم ، تحت إشراف الأطباء ، وستجد أنه سيشبه (عماد) رحمه الله تمام الشبه ، عندما ينخفض وزنه قليلاً .

عاد (سمير) يبتسم بإشفاق مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ إنك تتحدث عن التشابه الشكلى يا (فؤاد) ، ولكننى أتحدث عن التشابه الموضوعى .. انظر إلى (عماد) الصغير ، كيف يعامل (دينا) بغطرسة وعنف وأنانية ، وسل نفسك : هل يمكن أن ينمو هذا ، ليصبح نسخة طبق الأصل من (عماد) رحمه الله ، بكل هدوئه ، ورقته ، وأدبه ، وايمانه بالله (سبحانه وتعالى) ؟

صمت (فؤاد) لحظة ، فى توتر بالغ ، قبل أن يغمغم :

ـ كل شىء يتغير مع الزمن .

وافقه (سمير) بتنهيدة وإيماءة رأس ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا (فؤاد) .. بالتأكيد يا شقيقى الوحيد .. كل شىء يتغير مع الزمن .

لم يشأ (فؤاد) أن يناقش الأمر أكثر ، فابتعد عن شقيقه ، متظاهرًا بالانشغال فى أمر آخر ، وراح يراقب (عماد) الصغير من بعيد ..

كانت ملابسه قد اتسخت ، من اللعب مع رفاقه ، و(دينا)

تحاول إقناعه أن يستبدل بها ملابس نظيفة ، وهو يرفض هذا ، ويتعامل معها بأسلوب سخيف ، يفتقر إلى الذوق والأدب ، قبل أن يصرخ فى وجهها غاضبًا :

ـ ابتعدى عنى .. لن أبدل ثيابى الآن .. ألا تفهمين مثل الحمير ؟!

ارتبكت (دينا) ، وتخضَّب وجهها بالحمرة ، وتراجعت متمتمة :

ـ أنا مثل الحمير يا (عماد) .. أليس من العيب أن تصف أمك بهذا ؟!

أجابها الصغير فى حدة عصبية :

ـ كلا .. ليس من العيب ؛ لأنك بالفعل مثل الحمير .

ولم يحتمل (فؤاد) هذا ..

كان الجميع يتطلعون إلى الصغير بدهشة واستنكار ، عندما اندفع نحوه ، وجذبه من أذنه فى غضب ، صائحًا به :

ـ اعتذر لأمك عما قلته .

صرخ الصغير من الألم ، وصاح فى عناد :

ـ كلا .. لن أعتذر .. إنها كذلك بالفعل .

فصفعه (فؤاد) على وجهه ، هاتفًا :

ـ أنت تستحق هذا إذن .

تلقىَّ الصغير الصفعة ، واحتقن وجهه فى شدة ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم لم يلبث أن انطلق يعدو مبتعدًا ، دون أن يذرف دمعة واحدة ..

وران صمت رهيب على المكان ..

صمتٌ قطعه (فؤاد) ، وهو يجبر نفسه على الابتسام ، قائلاً :

ـ لا تدعو هذا التصرُّف البسيط يفسد بهجتكم .. الصغير أخطأ ، وكان يستحق العقاب .. كلنا نفعل هذا مع أولادنا .. أليس كذلك ؟!

نسفت عبارته الصمت نسفًا ، وراح الجميع يتحدثون فى آن واحد عن أبنائهم ، ومشكلاتهم ، ومتاعبهم التى لا تنتهى ..

أما (دينا) ، فقد مالت على أذن (فؤاد) ، قائلة :

ـ ما كان ينبغى أبدًا أن تصفعه على وجهه .

أجابها فى حزم :

ـ لقد أساء إليك ، وكان يستحق هذا .

قالت فى حنان :

ـ أنا سامحته .

قال فى حدة :

ـ تدليلك الزائد هذا له هو الذى أفسده .

قالت فى ارتياع :

ـ هل تتوقَّع منى أن أضربه لو أخطأ ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ كل أم تفعل هذا .

هتفت :

ـ إلا أنا ..

ثم استدركت بلهجة أقرب إلى البكاء :

ـ هل نسيت من هو ؟!

أجاب فى عصبية :

ـ كلاً .. لم أنس ، ولكننى أفعل هذا لصالحه ، و ....

قبل أن يتمَ عبارتـه ، فوجئ بقطعة من كعكة عيد الميلاد ترتطم بوجهه فى عنف ، فمسحها بيده هاتفًا فى غضب :

ـ من فعل هذا ؟!

فوجئ بالصغير يقف أمامه متحديًا ، وهو يقول :

ـ إياك أن تصفعنى على وجهى مرة أخرى .

وللمرة الثانية ، ساد صمت رهيب فى المكان ..

واتجهت الأنظار كلها إلى (فؤاد) و (عماد) الصغير ..

(فؤاد) وحده ، دون الجميع ، لم يحدِّق فى ابنه ..

لقد انطلق بصره يجوب الحاضرين ، حتى توقَّف عند شقيقه (سمير) ..

كان بدوره يحدِّق فى الصغير مستنكرًا ، إلا أن شيئًا ما جعله يرفع عينيه إلى شقيقه ..

والتقت عيونهما ..

وأفكارهما ...

ودون أن ينطق أحدهما بحرف واحد ، انطلق سؤال حائر من أحدهما إلى الآخر بسرعة البرق ..

ترى هل من الممكن أن ينمو هـذا الصغير ، ليصبح نسخة طبق الأصل من (عماد) ؟!

هل ؟!

وظلَ السؤال حائرًا فى سماء الصمت ، على نحو يؤكِّد أن الجواب لن يأتى إلا على لسان الزمن ...

الزمن وحده .

★ ★ ★

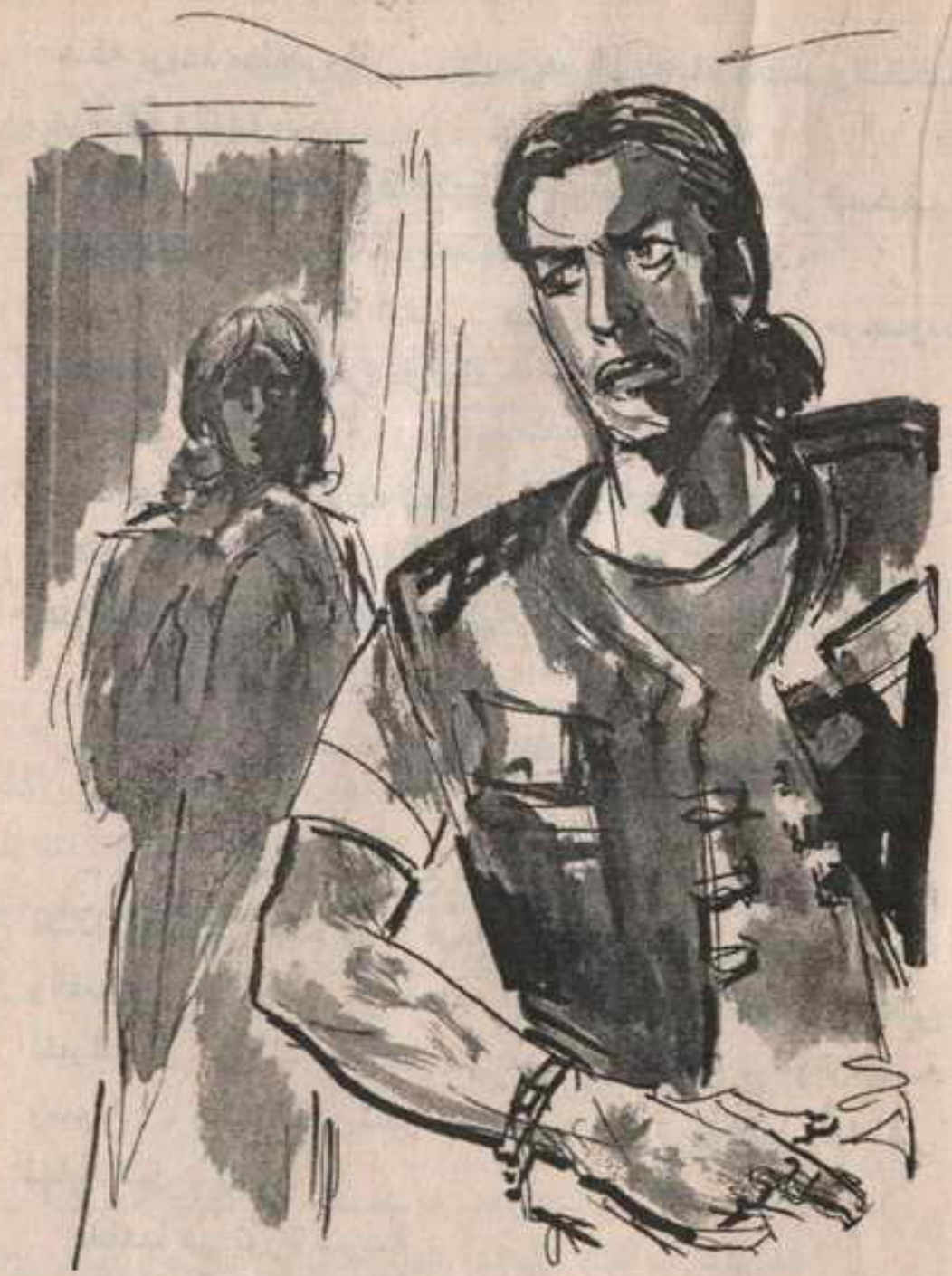

٦- ميـــراث الخطـــأ ..

« أريد نقودًا .. »

نطق (عماد) العبارة فى غلظة وخشونة صارمتين ، فى مواجهة (دينا) ، التى جفَّ حلقها من فرط التوتر ، وهى تتطلَّع إليه ، قائلة :

- أية نقود ؟! لقد أنفقت ما يقرب من ألفى جنيه ، ولم ينتصف الشهر بعد .

كانت تتحدَّث إليه ، وكيانها كله يتساءل : ترى فى أى شىء أخطأت ، فى أثناء تربيتها له ؟!

إنها و(فؤاد) يعلمان جيِّدًا أنه نسخة طبق الأصل من الراحل (عماد) ، من الناحية الوراثية والجسدية ..

الاثنان يحملان نفس الجينات والصفات بالضبط ..

ودون أدنى اختلاف ..

فلماذا يبدو ذلك الواقف أمامها إذن ، وكأنه شخص آخر ، لا ينتمى قط لـ (عماد) ، الذى أحبته ، وكادت تتزوَّجه ، منذ ما يقرب من ثمانية عشر عامًا ؟!

إنه لم يعد حتى يشبهه ، بملامحه القاسية الشرسة ، وملابسه المزرية ، التى يصرّ على ارتدائها ، على الرغم من ازدحام دولابه بكل غال وثمين ، وشعره الطويل ، المعقود خلف

عنقه برباط مطاطى قذر ، وكأنما هو ألد أعداء النظام والنظافة والأناقة والذوق ..

ناهيك عن غلظته وقلة تهذيبه ، وأسلوبه العدوانى السخيف ، وهو يجيبها :

ـ ألفان أو عشرة آلاف .. هذا لا يهم .. النقود موجودة لننفقها ، لا لنكنزها فى خزائننا .

هتفت به :

ـ قول حق ، يراد به باطل ... النقود خلقت بالفعل لننفقها ، ولكنك ما زلت فى السابعة عشرة من عمرك ، فكيف تنفق كل هذا المبلغ ، فى فترة قصيرة كهذه ؟! فيم أنفقت ألفى جنيه ؟!

لوّح بذراعه كلها ، صائحًا :

ـ هذا شأنى .. لست مضطرًا لتقديم كشف حساب لأحد .

صاحت غاضبة :

ـ بل قل : إنك لا تستطيع تقديم كشف حساب .. هل تعلم لماذا ؟! لأننى أعلم جيدًا فيم تنفق نقودك ... على العبث والفساد .. هل ترغب فى معرفة المزيد من التفاصيل ؟! دعنى أخبرك إذن عن ذلك الملهى فى شارع (الهرم) ، والراقصة (سونا) ، وذلك القذر تاجر المخدرات ، الذى تذهبون إليه فى نهاية الليل ، و ....

قاطعها فى ثورة شرسة :

ـ هل تراقبيننى ؟! هل أرسلت خلفى من يراقبنى ؟!

تراجعت خائفة أمام ثورته ، وهى تهتف :

ـ هذا حقى .. أنا أمك ، ولا بد أن أعلم فيم تنفق نقودك .

أمسك كتفيها فى قوة وغلظة ، حتى إنها شعرت بأصابعه تنغرس فيهما بقسوة ، فهتفت به :

ـ اتركنى .

بدت لها عيناه المحمرتان أشبه بجمرتين من الجحيم ، وهو يقول فى لهجة ارتجفت لها عروقها :

ـ إياك أن تفعلى هذا مرة أخرى .

انتفضت بين يديه ، قائلة :

ـ هل أترك هؤلاء الأوغاد يستولون على أموالك ، و ...

قاطعها بصرخة هادرة ، وهو يدفعها بعيدًا :

ـ أنا حر .

ارتطم ظهرها بالجدار ، وصرخت فى ألم مذعور ، ولكنه لم يبال بصرختها ، وهو يضرب باب الدولاب بقدمه ، ثم يفحته فى عنف ، ويختطف من داخله عدة رزم من النقود ، فى لهفة مجنونة ، جعلتها تندفع نحوه ، صائحة :

ـ لا .. لن أسمح لك .

استدار إليها بحركة حادة ، صارخًا :

ـ ابتعدى عنى .

ولم يمكنها أن تستوعب ما حدث ، مع نهاية صرخته ..

لقد شعرت بتلك الصفعة القوية تهوى على وجهها ، وتلقى بها على سريرها فى عنف وقسوة ..

شعرت بها ، ولكنها لم تستوعبها ..
أو قل إنها لم تصدّقها ..
أو رفضت أن تصدّقها ..
وفى مزيج من الألم ، والارتياع ، والذعر ، والخوف ، والاستنكار ، والاستهجان ، هتفت :
ـ (عماد) .. هل تضربنى أنا ؟! تضرب أمك ؟!
رماها بنظرة كسهام النار ، وهو يدس النقود فى جيبى سترته الجلدية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم اندفع يغادر المكان فى عنف كالعاصفة ، فانفجرت الدموع من عينيها كالسيل ، وهى تكرّر :
ـ أتضرب أمك ؟!
كانت كل خلية فى جسدها تشعر بالألم والمرارة والانهيار ..
ماذا حدث ؟!
كيف تحوّل إلى ما وصل إليه ؟!
كان المفترض أن يصبح نسخة طبق الأصل من (عماد) ..
نسخة طبق الأصل من وسامته ، وأناقته ، وطيبته ، وحنانه ..
نسخة من تدينه والتزامه ..
هذا ما كانوا يسعون إليه منذ البداية ..
فما الذى حدث ؟!
هل أخطأت تربيته ؟!
هل فشلت فى أن تصنع منه ذلك الشاب ، الذى كانت ستتزوّجه يومًا ؟!

أم أنه الزمن ؟!
الزمن الذى تغيرّ ، وتغيرّت معه الظروف والطبائع ..
وحتى الأخلاقيات ..
ماذا حدث ؟!
ماذا ؟!
وفى مرارة ، التقطت سمّاعة الهاتف ، وطلبت رقم (فؤاد) الخاص ، ولم تكد تسمع صوته ، حتى هتفت :
ـ (فؤاد) .. إننا ندفع الثمن .. ندفع الثمن يا (فؤاد) .
انتزع الملياردير نفسه من حديثه مع شقيقه ، وهو يسألها فى توتر :
ـ أى ثمن يا (دينا) ؟! ماذا حدث ؟!
انفجرت دموعها مرة ثانية ، وهى تجيب :
ـ نحن أفسدناه يا (فؤاد) .. نحن صنعنا منه هذا الوحش ، الذى يعيش بيننا الآن .
احتقن وجهه ، وهو يسألها فى توتر بالغ :
ـ ماذا فعل هذه المرة ؟!
هتفت من وسط دموعها ومرارتها :
ـ لقد تجاوز الحدود هذه المرة ... كنت أعاتبه ؛ لأنه ينفق نقوده على الساقطات والمخدرات ، عندما .. عندما ...
لم تستطع إكمال عبارتها ، وهى تنتحب بشدة . فردّد فى هلع :

ـ ساقطات ومخدرات ؟! هل بلغ هذا الحد ؟!

هتف (سمير) فى ارتياع :

ـ أعوذ بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

بكت (دينا) فى مرارة أكثر ، وهى تقول :

ـ لقد حطم الدولاب ، واستولى على النقود ، ثم ... ثم صفعنى .

اتسعت عينا (فؤاد) عن آخرهما ، وكادت أصابعه تحطم سماعة الهاتف ، وهو يصرخ عبره ، بكل استنكار واستهجان الدنيا :

ـ صفعك .. هذا الكلب الحقير .

تمتم (سمير) :

ـ رحماك يا رب العالمين .. رحماك .

شعر (فؤاد) بغصة فى حلقه ، وهو يقول لها :

ـ حسن .. اتركى الأمر لى .. سألقنه درسًا لا ينساه أبدًا .

وأنهى الاتصال ، مغمغمًا فى عصبية :

ـ ماذا أصاب هذا الولد ؟! كيف انحدر إلى هذا الدرك ؟! ما الذى أخطأنا فيه بشأنه ؟! لماذا لم ينشأ كقرينه ؟!

حاول (سمير) أن يخفى مشاعره فى أعماقه ، إلا أنه عجز عن هذا ، فقال فى خفوت :

ـ الخطأ كان منذ البداية .

التفت إليه (فؤاد) فى حدة ، هاتفًا :

ـ ماذا تقول :

كررَ (سمير) بصوت مسموع :

ـ أقول : إن الخطأ جاء منذ البداية .

رمقه شقيقه بنظرة غاضبة ، وهو يقول :

ـ ما زال بإمكاننا إصلاح هذا الخطأ .

وضغط أحد أزرار جهاز الاتصال الداخلى ، مستطردًا فى صرامة :

ـ (حلمى) .. هل تعرف أين يمكن أن نجد (عماد) الآن ؟!

أجابه (حلمى) هذا فى سرعة :

ـ إننى أستطيع العثور عليه دائمًا يا (فؤاد) بك .

قال (فؤاد) فى صرامة :

ـ عظيم .. اعثر عليه ، وأحضره إلى هنا على الفور .. هل تفهم ؟!

أجابه الرجل :

ـ أمرك يا (فؤاد) بك .

أغلق (فؤاد) جهاز الاتصال الداخلى ، وهو يقول فى عصبية :

ـ كل خطأ يمكن إصلاحه .

قال (سمير) فى سرعة :

ـ على ألا يكون هذا بخطأ آخر .

صاح به (فؤاد) فى حدة :

ـ لماذا تقول هذا دائمًا ؟! لماذا تصرَ على اعتبار ما فعلناه

خطأ ؟! إننى لم أقتل أو أسرق .. كل ما سعيت إليه هو أن أحصل على وريث .. على شخص يفوز بكل هذه الثروة الطائلة .

أجابه (سمير) ، وقد قرَّر أن يقتحم المشكلة مباشرة :

ـ كانت هناك وسيلة شرعية مباشرة ، للحصول على ذلك الوريث .. أن تتزوَّج ، على سنة الله ورسوله ، وتنجب وريثًا شرعيًا ، يباركه الله (سبحانه وتعالى) ، ويجعله خير خلف لخير سلف .. ولكنك رفضت هذا .. رفضت أن تقبل ما قدَّره الله (عزَّ وجلَّ) ، ولم ترض بقضائه ، عندما اختار (عماد) (رحمه الله) إلى جواره ... لم ترض بهذا ، قط ، ورفضت أن تستسلم للقدر ، ورحت تنفق جهدك وأموالك لاستعادة ما ضاع ، دون أن تفكر فى بناء مستقبل جديد .

صاح به (فؤاد) فى غضب :

ـ عندما سعيت لنسخ (عماد) ، كنت أفكِّر فى المستقبل .. فى الوريث .. ألا يمكنك أن تفهم هذا قط ؟!

تنهدَّ (سمير) ، قائلاً :

ـ بل أفهمه يا (فؤاد) ، ولكننى لا أرضى عنه أبدًا .. كلنا عايشنا (عماد) رحمه الله .. كلنا كنا نعلم كم كان درَّة بين بنى جيله .. ولكن الله (سبحانه وتعالى) لم يرد له أن يرثك .. وهذه مشيئته (عزَّ وجلَّ) ، وكان ينبغى أن تقبل هذا ، وتبحث عن وريث آخر ، لا أن تصرَّ على معاندة القدر ، واستعادة الوريث ، الذى قرَّرت أنت أن يرث ثروتك .

انعقد حاجبا (فؤاد) فى صرامة ، وهو يقول :

ـ سيرثها يا (سمير) ... (عماد) سيرث ثروتى ، مهما قلت أو فعلت .

أشار (سمير) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ فقط إذا كانت هذه هى مشيئة الله (سبحانه وتعالى) .

صاح (فؤاد) :

ـ سيرثنى يا (سمير) .. هل تسمعنى ؟! إننى لم أفعل كل ما فعلت ، لتذهب الثروة إلى شخص آخر .. (عماد) وحده سيرثنى .. هل تفهم ؟!

احتقن وجه (سمير) ، ولم ينبس ببنت شفة ، فى حين ارتفع صوت خشن ، يقول فى سخرية :

ـ بالطبع (عماد) هو الذى سيرثك يا (فؤاد) بك .

التفت الاثنان فى آن واحد ، إلى مصدر الصوت ، وانعقد حاجبا (فؤاد) ، وهو يقول فى غضب صارم :

ـ لم أتوقَّع أن يحضرك (حلمى) بهذه السرعة .

ابتسم (عماد) فى سخرية ، وألقى جسده على أقرب مقعد إليه ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، على نحو مجاف للذوق واللياقة ، وهو يجيب :

ـ لا فضل لـ (حلمى) فى هذا .. لا تجعله يخدعك كعادته .. لقد كنت فى طريقى إلى هنا ، عندما التقى بى عند مدخل المؤسسة .

سأله (فؤاد) فى غضب :

ـ ماذا فعلت بأمك ؟!

تجاهل (عماد) السؤال تمامًا ، وهو يتابع :

ـ الواقع أننى أتيت إليك بشأن (مرسيدس) رياضية جديدة ، شاهدتها مساء أمس ، فى معرض السيارات الجديد ، عند ناصية الشارع ، وهى ليست غالية الثمن ، و ....

قاطعه (فؤاد) فى غضب أكثر :

ـ ماذا فعلت بأمك يا ولد ؟!

انعقد حاجباه فى شراسة ، وهو يقول :

ـ لقد حاولت منعى من أخذ النقود .

صاح به (فؤاد) :

ـ إنك لا تستحق أية نقود ، بعدما كشفنا أين وكيف تنفقها .

ارتبك (سمير) ، وهو يقول :

ـ رويدكما .. المكان ليس مناسبًا لتبادل مثل هذا الحديث .

ولكن (عماد) تجاهل هذا القول ، وهو يهبّ من مقعده ، صائحًا :

ـ من حقى أن أنفق نقودى أينما وكيفما أشاء .

صرخ فيه (فؤاد) :

ـ إنها ليست نقودك بعد .

صاح فيه الشاب فى شراسة :

ـ ولكنها ستصبح كذلك حتمًا .. لا توجد قوة فى الأرض يمكنها أن تمنع هذا .. أنت قلتها بنفسك .

احتقن وجه (فؤاد) ، وهو يصيح :

ـ إياك أن تتحدَّث معى بهذا الأسلوب مرة أخرى .

هتف (عماد) :

ـ سأتحدَّث بالأسلوب الذى يحلو لى .

هتف (سمير) فى قلق :

ـ لا تخاطب والدك بهذه اللهجة يا (عماد) .

وصاح (فؤاد) فى غضب هادر :

ـ أنت عديم الأدب والتربية .

أجابه الشاب فى تحدٍّ :

ـ ربما لأننى لم أجد من يربينى .

اندفعت السكرتيرة إلى المكتب فى هذه اللحظة ، هاتفة فى قلق :

ـ (فؤاد) بك .. صوتكما بلغ الموظفين ، و ...

قاطعها (عماد) فى غضب :

ـ وما شأنك أنت أيتها العاهرة ؟!

اتسعت عيناها فى هلع مذعور ، وتراجعت متمتمة :

ـ أنا ؟!

وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمل (فؤاد) ، فاندفع نحو (عماد) ، صائحًا :

ـ أيها الحقير .

وهوى على وجهه بصفعة قوية ...

صفعة أودعها كل غضبه وحنقه وثورته ..

ومع رنين الصفعة ، هوى صمت ثقيل على المكان ...

واتسعت عيون الجميع فى ذهول ...

(فؤاد) وحده ظلّ غاضبًا صارمًا بعدها ، وهو يرمق (عماد) بنظرة نارية ، ثم يستدير إلى مكتبه ، متابعًا :

ـ هذا ما كان ينبغى أن أفعله منذ البداية .

احتقن وجه (عماد) فى شدة ، واشتعلت عيناه بنيران الغضب ، وهو يغمغم فى صوت خافت ، يموج بالسخط والثورة :

ـ لقد قتلتها من قبل .

ثم اختطف منفضة السجائر النحاسية الثقيلة ، واندفع نحو (فؤاد) ، صارخًا :

ـ إياك أن تصفعنى على وجهى .

استدار إليه (فؤاد) ، دون أن يتخيَّل ما سيحدث ، و ...

وهوت المنفضة الثقيلة على جبهته ، بمنتهى العنف والقسوة ..

وشعر بشىء ينفجر داخل جمجمته ، وشقيقه (سمير) يعدو نحو (عماد) ، صارخًا :

ـ ماذا تفعل ؟! هل جننت ؟!

وارتفعت المنفضة النحاسية مرة أخرى ..

وعادت تهوى بنفس العنف والقسوة ...

ورصدت عينا (فؤاد) هبوطها ..

وبدت له عينا (عماد) أشبه بعينى شيطان رجيم ..

وفى أذنيه ، انطلقت صرخة سكرتيرته المذعورة ، وهى تعدو خارجة ، لا ستدعاء رجال الأمن والشرطة ..

وفى أعماقه ، انطلقت صرخة أخرى ..

كل شىء انهار ..

النسخة التى بذل كل ما بذل من أجلها تقتله ..

وطبقًا للشرع ، فالقاتل لا يرث ضحيته قط ..

مهما كان(*) ..

وهذا يعنى أن ثروته كلها ستذهب إلى شقيقه ..

إلى (سمير) ..

وارتطمت المنفضة برأسه مرة ثانية ..

وشعر بذلك الانفجار الثانى داخل جمجمته ..

وتوقّفت تلك الصرخة فى أعماقه ..

وهوى ...

أمام كل العيون الذاهلة ، سقط (فؤاد صالح) عند قدمى (عماد) ، والدماء تتدفّق من رأسه فى غزارة مخيفة ..

وتراجع (عماد) ذاهلاً مذعورًا ، وهو يحدّق فى (فؤاد) ، وكأنما لا يصدّق أو يستوعب ما اقترفت يداه ، فى لحظة غضب حمقاء ، ثم لم يلبث أن انفجر باكيًا فى انهيار ..

(*) حقيقة ..

أما (سمير) ، فقد ألقى نفسه على شقيقه ، وراح يحاول عبثًا إيقاف ذلك النزيف الرهيب بيديه ، وهو يصرخ :

ـ لا يا (فؤاد) .. لا .. اطلبوا الإسعاف .. استدعوا أحد أطباء الشركة .. أسرعوا باللّه عليكم .. أسرعوا ..

سمع (فؤاد) هذه العبارة ، وعيناه متسعتان عن آخرهما ، تحدقان في الآية المعلّقة فوق مكتبه ..

بسم اللّه الرحيمن الرحيم .. ﴿ إن الأرض للّه ، يورثها من يشاء من عباده ﴾ .. صدق اللّه العظيم(*) ..

كان هذا آخر ما وقع عليه بصره ، قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيه ..

وتظلم ..

وتظلم ..

ثم ينتهى كل شىء ...

إلى الأبد ..

★ ★ ★

[تمت بحمد اللّه]

(★) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .

باقة من القصص
والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

فى هذا الكتاب

	صفحة
كمبيوتر (قصة قصيرة)	٥
اختبر معلوماتك	١٧
فاى .. سلسلة جديدة :	
عملية (الأستاذ) .. الجزء الأول	٢٣
(مصر) تسبق (أمريكا) .. إلى القرن الحادى والعشرين (حقيقة علمية)	٧١
المرأة مشكلة ... صنعها الرجل (دراسة)	٧٧
قصة العدد :	
(الوريث)	٨٧
عزيزى القارئ (١)	٢٢١
عزيزى القارئ (٢) (عدد خاص)	٢٣٦
حلول اختبر معلوماتك	٢٨٢

الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكي
فى سائر الدول العربية والعالم